جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الآخر في شعر المتنبي

إعداد
رولا خالد محمد غانم

إشراف
د. عبد الخالق عيسى

قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين
2010م

الآخر في شعر المتنبي

إعداد

رولا خالد محمد غانم

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ: 2010/10/7 وأُجيزت

أعضاء لجنة المناقشة:		التوقيع
1. د. عبد الخالق عيسى	مشرفاً ورئيساً	....
2. أ. د. وائل أبو صالح	ممتحناً داخلياً	....
3. د. فيصل غوادره	ممتحناً خارجياً	....

الإهـــــداء

أهدي ثمرة جهدي وسهر ليلي إلى روح والدتي الغالية التي اختارها الله تعالى قبل أن ترى عيناي النور سائلة المولى -عز وجل- أن يجعل هذا البحث في ميزان حسناتها.

وإلى والدي العزيز الذي كانت، وما زالت دعواته تنير لي طريق نجاحي.

وإلى شريك حياتي وسندي ورفيق دربي، ومن كان له الدور الأكبر في مواصلة دراستي زوجي الغالي.

وإلى زهرات عمري، و فلذات كبدي قيس، وأحمد، ويزن، وميرا.

وإلى كلّ من وقف بجانبي وساندني وشدّ من أزري وقوّاني.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل

الشكر والتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل من الدكتور الفاضل (عبد الخالق عيسى) الذي تفضل وتكرم بالإشراف على رسالتي، وتابعني فيها حرفاً حرفاً وسطراً سطراً، فبارك الله في جهوده، وحفظه من كل سوء، وأدامه ذخراً لجامعة النجاح الوطنية.

كما وأتقدم بالشكر من الدكتور (وائل أبو صالح) الذي تفضل بقبول قراءة أطروحتي؛ لمناقشتها والتعليق عليها، والشكر موصول أيضاً إلى الدكتور (فيصل غوادره) الذي تفضل بقبول قراءة أطروحتي كذلك.

كما أتقدم بالشكر والعرفان من الدكتور المتوكل طه وكيل وزارة الإعلام الذي لم يبخل علي بمعلوماته الوفيرة، فجزاه الله عني كل خير. كذلك الأستاذ والناقد صبحي الشحرور الذي ساندني وشجعني. وكل الشكر والتقدير إلى مكتبة بلدية طولكرم، وأخص الأستاذ إبراهيم الشاعر. كما أشكر مكتبة جامعة النجاح الوطنية التي أسعفتني بكل ما احتجت إليه خلال فترة دراستي.

فبارك الله في الجميع، وسدّد خطاهم لكلّ خير

الباحثة

رولا غــانــم

إقرار

أنا الموقع/ة أدناه، مقدم/ة الرسالة التي تحمل العنوان:

الآخر في شعر المتنبي

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى .

Declaration

The work provided in this thesis ، unless otherwise referenced ، is the researcher's own work، and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's Name: .... **اسم الطالب/ة: ....**

Signature:……………………… **التوقيع: ……………………**

Date: / / 2010 **التاريخ:** / /2010م

فهرس المحتويات

الآخر في شعر المتنبي

إعداد
رولا خالد محمد غانم

إشراف
الدكتور عبد الخالق عيسى

الملخص

تكتسب هذه الدراسة أهمية خاصة من كونها تناولت شاعراً كبيراً شغل الدارسين قديماً وحديثاً، إلا أن أحداً منهم لم يلتفت إلى صورة الآخر في شعر المتنبي، وبالتالي تعتبر هذه دراسة جديدة في موضوعها على الرغم من الدراسات التي دارت حوله.

وقد تناول البحث صورة الآخر في شعر المتنبي, ومن الصور الأهم فيها صورة الآخر الأنا، ذلك أن الأنا المتعالية كانت من أهم الظواهر التي تميز بها شعر المتنبي. وتناول البحث صورة الشعراء. وصورة العربي قبل شهرة المتنبي وبعد شهرته. وصورة الآخر الأعجمي المسلم وغير المسلم.

إن تناول صورة الآخر في شعر المتنبي شكّل لدينا فكرة واضحة عن صورة الآخر الأنا، تلك الأنا المغتربة عن الذات، حيث كانت قوية لدى المتنبي فلم تضمها أرض ولم تحدها سماء. وعن الآخر الشاعر الذي نظر إلى المتنبي نظرة عداء، حيث نافسه على لقمة العيش.

وشكّل لدينا فكرة عن صورة الآخر العربي الممدوح قبل شهرة المتنبي، فقد كانت صورته تقليدية تمثلت في الشجاعة والكرم، وعن الآخر العربي بعد الشهرة، وكانت شخصية سيف الدولة الحمداني خير مثال لصورة العربي الممدوح بعد الشهرة، حيث قال فيه المتنبي ما

يقارب ثلث الديوان، وبدت صورته مشرقة للغاية، ذلك أن ذات المتنبي اتحدت مع ذات سيف الدولة الذي احتل الصدارة في حياته وديوانه.

وقد بدت لنا صورة الأعجمي المسلم جلية في الديوان، ومن أبرز الشخصيات الأعجمية المسلمة التي مدحها وهجاها المتنبي في آن واحد شخصية كافور الإخشيدي، حيث ظهرت شخصيته بصورتين الأولى مشرقة، فقد مدحه المتنبي لغاية معينة، ألا وهي التكسب والحصول على الولاية والحكم، والأخرى قاتمة جاءت من خلال قصيدة الهجاء، إذ أغرق المتنبي في هجائه حين تيقن من أنه لم يحقق له مراده. وتناول البحث صورة الآخر الأعجمي غير المسلم، والتي تمثلت في الروم الذين كان لهم حضورهم في حياة العرب من خلال الحروب التي جرت بين العرب وبينهم.

المقدمة:

يعد المتنبي واحداً من أهم شعراء العربية، إن لم يكن أهمهم، فهو بعيد الأثر في حلقات الأدب، شائع بين الطبقات جميعها[1]، وثمة دراسات عديدة تناولت الشاعر من حيث حياته، وصفاته، وأغراضه الشعرية وغير ذلك، وقد تلقى الناس، والجمهور شعره بحفاوة، وإجلال حتى لقبوه بشاعر الإمارات[2].

وقام بشرح ديوانه، ونقده الغالبية العظمى من شراح عصره ونقادهم، بعضهم مضى يفسّر الغريب من أشعاره، واقتناص الجديد الذي طلع به، وبعضهم مضى يرجع هذه المجموعة من المعاني والصور في قصائده إلى قصائد غيره، وآخرون اكتفوا بالوقوف أمام المتنبي وقفة الظمآن على حافة بئر يلقي بدلوه، ويعب الماء حتى يرتوي، ومن ثم يمضي لمواصلة طريقه. واجتماع النقاد، والشراح على شعر أبي الطيب المتنبي يدلّ دلالة واضحة على أهمية المتنبي، وعلى الدور الذي أداه في الحياة الشعرية، وعصور الأدب كلها، فأبو الطيب المتنبي ما يزال حيا يرزق، ويعيش بيننا حتى الآن[3].

فشعره مثال رائع للحياة القومية في عصره، وصورة بارزة للحياة الفكرية والأدبية، وفيه تصوير للنزاع بين المثل العليا، والحقائق الواقعية، والألم والأمل، واليأس والرجاء، والسخط

(1) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ط10، بيروت: دار العلم للملايين، 1975، ص349.

(2) شلبي، سعد إسماعيل: **مقدمة القصيدة عند أبي تمام والمتنبي**، (د، ط)، القاهرة: دار غريب للطباعة، (د، ت)، ص5.

(3) إسماعيل، عز الدين: **نوابغ العرب أبو الطيب المتنبي**، (د، ط)، بيروت: دار العودة، 1974، ط1، ص95.

والرضا، والحب والبغض، وفيه صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة، ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة والطموح[1].

كان أبو الطيب المتنبي كالملك الجبار، يأخذ ما حوله قهرا وعنوة، كالشجاع الجريء، يهاجم من يريده، ولا يبالي بما لقي، ولا حيث وقع[2]، ولما كان شعره نموذجاً كريماً للباحثين عن المعارف في فنونها، وألوانها، فقد قررت أن أجعل موضوع بحثي حول هذا الشاعر العظيم، وفي جانب جديد لم يتحدث عنه أحد في كتاب بعينه، فكان تحت عنوان "**الآخر في شعر المتنبي**" وهو موضوع يستحق الدراسة؛ لأنه يكشف عن شبكة من العلاقات كان لها أثرها في توجيه شعر المتنبي، وتنوع موضوعاته، وصيغه الخطابية.

وتطلعت من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف إلى الآتية:

- التعرف إلى صورة الآخر الأنا في شعر المتنبي.
- التعرف إلى صورة الآخر الشاعر في شعر المتنبي.
- التعرف إلى صورة الآخر العربي الممدوح قبل شهرة المتنبي.
- التعرف إلى صورة الآخر العربي الممدوح بعد شهرة المتنبي.
- التعرف إلى صورة الآخر الأعجمي المسلم.
- التعرف إلى صورة الأعجمي غير المسلم.

---

(1) خفاجي، محمد: **الحياة الأدبية في العصر العباسي**، ط1، الإسكندرية: دار الوفاء، 2004، ص238.
(2) إسماعيل، عز الدين: **نوابغ العرب أبو الطيب المتنبي**، ص29 .

وقد اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي والمنهج النفسي، وجعلت من ديوان المتنبي مصدراً أساسياً. وأفدت من مصادر قديمة ككتاب (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) لأبي منصور الثعالبي، ومن مراجع حديثة ككتاب (في رحاب أبي الطيب) للدكتور وجيه سالم.

وانتظم عقد البحث في مقدمة، وثلاثة فصول، تضمن كل فصل مبحثين. المبحث الأول من الفصل الأول كان تحت عنوان "**الآخر الأنا**" والثاني "**الآخر الشاعر**". والمبحث الأول من الفصل الثاني تحت عنوان "**الآخر العربي الممدوح قبل شهرة المتنبي**"، والثاني بعنوان "**الآخر العربي الممدوح بعد شهرة المتنبي**". أما المبحث الأول من الفصل الثالث حمل عنوان "**الآخر الأعجمي المسلم**"، والثاني "**الآخر الأعجمي غير المسلم**".

التمهيد:

إذا كان الأدب مرآة للحياة السياسية والاجتماعية، فإن أدب الحقبة التي عاش فيها المتنبي يمثل نفوس أدبائها تمثيلا صحيحا، فقد اجتاحت العواصف الهوجاء نفوسهم، وتنافس الشعراء على اللحاق بالبلاطات، الأمر الذي رفع من مستوى الأدب فكرا، وأسلوبا. في هذا العصر الذي تلظى فيه المتنافسون ولد أبو الطيب المتنبي أعظم شعراء العرب، وأنا لست هنا بصدد تأريخ حياة هذا الشاعر الكبير، ولكن لا بد لي من الإلمام بنسبه ونشأته، ومن الوقوف عند أهم المحطات في حياته.

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي الكندي، ولد سنة ثلاث وثلاثمئة من الهجرة، وكندة التي ينسب إليها هي محلة في الكوفة[1].

ولد ونشأ المتنبي في بيئة كان يصبغها الدم من حين لآخر، وكان يتردد ما بين البادية، والحضر، فاكتسب من الأولى صلابتها، ونزعتها البدوية، ومن الثانية علومها، وثقافتها الأدبية، وقيل إن أباه سلمه إلى المكاتب، وردده في القبائل[2].

وقد أتيح للمتنبي أن يتصل بقبائل بني كلب، وأن يدرك نزعاتهم إلى التمرد، فيتمكن ببلاغته من تحريكهم تحريكا يلفت نظر الحكام[3].

ولم يكن المتنبي آمنا في بغداد؛ لأنه كان قرمطي الهوى، فخرج منها خائفا. ارتحل قاصدا بلاد الشام، وأخذ يجول في أقطارها مادحا أعيانها بقي على هذه الحال بضع سنوات،

---

(1) عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، (د، ط)، بغداد، مطبعة الجزيرة، 1936، ص27-28.

(2) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ص327-329.

(3) المصدر نفسه، ص329-330.

حتى اتصل سنة 328 هـ بالأمير العربي "بدر بن عمار"، فلزمه ومدحه، ولكن اتصاله به لم يدم، فقد دخلت بينهما مكايد الحساد، فاضطر إلى تركه، والرجوع إلى ما كان عليه من التنقل في الأقطار. وله في هذه الفترة من الشعر ما يكاد يبلغ نصف ديوانه، وأهم ممدوحيه في هذه الفترة: آل اسحق التنوخي، وعبدالله بن خلكان، وشجاع الطائي. وبقي المتنبي يتنقل من مكان إلى آخر حتى ألقته المقادير إلى أنطاكية، وكان فيها أبو العشائر الحمداني واليا من قبل سيف الدولة، فمدحه المتنبي، ولحسن حظه قدم في تلك الأثناء سيف الدولة، فقدم أبو العشائر المتنبي إليه، وكان ذلك بدء اتصاله به، وبدء سعادته من جاه، ومال وفير[1].

لبث المتنبي مع سيف الدولة مدة طويلة، وقد قال في هذه الفترة أروع شعره. إلى أن فرق الحساد بينهما حتى انحرف عنه، وأصغى إلى أقوال الحساد والخصوم، مما أجبر المتنبي على الرحيل تاركا حلب، وقاصدا الرملة حتى طلبه كافور في مصر.

أقام في مصر أربع سنين وستة أشهر من جمادى الثانية سنة ست وأربعين إلى التاسع من ذي الحجة سنة خمسين وثلاثمئة[2].

وقد قصد كافور راغبا في الحصول على الولاية، إلا أن كافور لم يحقق له مراده، فشعر المتنبي بالإحباط،مما دفعه إلى هجائه بعد أن مدحه، وخرج هائما على وجهه قاصدا الكوفة، ومكث فيها ثلاث سنوات،ولم يطب مقامه، فتوجه إلى أبي الفضل (ابن العميد). وكان "الصاحب بن عباد" يطمع في زيارة المتنبي إياه في أصبهان، لكن المتنبي لم يقم له وزنا، فكان ذلك سبب عداوة الصاحب له، والطعن فيه، وسار إلى شيراز قاصدا عضد الدولة، فتلقاه بالترحيب، وأجزل

---

(1) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ص331. القرمطية: هي إحدى الفرق الباطنية التي شغلت السلطات العباسية، لما أثارته من إضطراب، وقلق في الأوساط العباسية بسبب أفكارها الثورية.

(2) عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ص147

له العطاء، وفي طريقه من شيراز إلى الكوفة خرج عليه فاتك الأسدي في نحو عشرين من رجاله، وكان مع المتنبي ابنه محسد، ونفر من غلمانه، وجمال تحمل أمواله، فجرت بينهم موقعة انتهت بموت المتنبي، وابنه، وبعض أتباعه. هكذا قضى المتنبي، وعلى مقربة من بغداد، وفي رمضان من سنة 354 هجري. في هذا التاريخ خمدت تلك النفس النزاعة إلى المجد، والتي كانت حريصة على غرور الدنيا، فحملت صاحبها تارة على تجشم الأموال وطورا على الوقوف في أبواب الملوك طمعا في جاه تناله، ولكن هذه النفس الأبية باءت بالفشل تاركة لنا من الحكم البالغة ما لا يزال على ألسنة الزمان تردده في كل مكان(1).

وقبل الخوض في دراستي هذه لا بد لي من توضيح مفهوم الآخر، إذ أن الآخر في الثقافة العربية الإسلامية قد تعدد، واختلف، وتسمى بأسماء متقاربة في بعض الأحيان، ومتباعدة في أحيان كثيرة، فاصطلاح الآخر من المصطلحات الفضفاضة التي تحتاج إلى توضيح، إذ يتشظى هذا المصطلح ليحمل دلالات تتشابك علاقتها في الذات، فالآخر قد يكون آخرا في الدين، أو اللغة، أو السياسة، أو الحضارة، أو العرق، وقد تنشطر الذات إلى "أنا"و"نحن"، وتتحول "النحن" إلى آخر كما في حالة الذين يشعرون بالاغتراب، أو اللاإنتماء، ومن الممكن أن تنعدم "الأنا"في "النحن"؛ لتكونا معا ذاتا واحدة في مجابهة الآخر(2).

والمتنبي هذا الشاعر العربي الكبير قد صادف في حياته العريضة الكثير من الآخرين حتى أنه انتزع من ذاته آخرا من خلال الأنا المتعالية، والتي أضفى عليها كل صفات العظمة، وسأوضح هذا بالتفصيل فيما بعد.

---

(1) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ص335-339.

(2) الديك، إحسان: **الآخر وأثره في شعر الأعشى الكبير**، عدد(3)، 2003، ص9.

الفصل الأول

الآخر الأنا والآخر الشاعر

المبحث الأول: الآخـــر الأنـــا

المبحث الثاني: الآخر الشاعر

المبحث الأول

الآخر الأنا

الأنا في شعر المتنبي:

إن الجهاز النفسي يتكون من الأنا (Ego) النفس الذاتية، والهو أو الهي (Id) النفس البدائية، والذات العليا (Super Ego) النفس اللوامة[1]. وكل أنا من الناحية المعرفية الخالصة تحمل معها آخرها، ولا يمكن الوصول إلى حدود الذات ما لم نصل معها وفي الوقت نفسه إلى حدود الآخر، فالعالم أو الآخر، والذات متلازمان[2]، ذلك لأن الوعي الذاتي يقتضي الشعور بالآخرين، فهو –أي الوعي الذاتي– اجتماعي بطبيعته[3].

والوعي الذاتي بمثابة علاقة مستمرة بذلك الآخر، الذي هو الموضوع، أو العالم الاجتماعي، أو الطبيعة، فضلاً عن أن العالم نفسه بمثابة المرآة التي يلتقي فيها الوعي بذاته، أو يتعرف فيها إلى ذاته[4]، فالذات ليست متطابقة مع ذاتها إلا في بعدها الزماني، أو في اسم العلم، إنها ذاكرة تختزن لنفسها صورة وهمية تتمناها دون أن تعرف أنها نقطة تلتقي عندها مع ذوات أخرى، لأنها سلسلة لا نهاية لها من الآخرين، وهؤلاء الآخرون الذين يصنعون الذات يصنعون معها العالم[5].

---

(1) الرفاعي، نعيم: **الصحة النفسية (دراسة في سيكولوجية التكيف)**، ط7، دمشق، 1987، ص113.

(2) انظر إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ط1، عمان: دار جرير للنشر، 2008، ص47-48.

(3) برديائيف: **العزلة والمجتمع**، (د، ط)، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986، ص91.

(4) شتا، علي: **نظرية الاغتراب**، ط1، الرياض: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، 1984، ص421.

(5) انظر إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص48.

وسعي الإنسان نحو القوة والسيطرة، وإظهار الذات يمثل دافعاً، وقوة عامة للسلوك تستند أحياناً إلى الشعور بالنقص، علماً أن السعي وراء السلطة، أو التفوق نزعة فطرية وهدف لغالبية الناس[1].

كذلك يسعى الشاعر بصفته ذاتاً إلى تجاوز حالة الأنا في الواقع، وإلى تحقيق الذات وتأكيدها من خلال الذات الشاعرة، وذلك في تعاليها على الآخرين وفي ذلك جوهر حريتها كما يرى سارتر حين يقول: "فإذا كنت أريد تأكيد نفسي علي أن أتعالى، وأن أنفي العبودية التي يقلصني إليها غيري"، وهكذا نجد أن الخاصية المهيمنة في شعر المتنبي هي الحضور الصارخ والمكشوف للأنا، حيث تبرز صورة الأنا في حضور مكثف في فضائه الشعري، ويتجلى ذلك في صور متعددة[2].

وقد أدرك المتنبي تميّزه وتفرّده مما دفعه إلى تعظيم الذات، والتعالي على الآخرين، ونستطيع أن نلاحظ الأنا الجبّارة العاتية، وظاهرة الفخر الذاتي منذ نشأته، وقد عرف عنه أنه ينزع إلى الفخر، ويسعى للوصول إلى أعلى المراتب قبل أن يكتمل في طرفي وجهه الزلف والشارب[3].

والمتنبي استحوذ على أعلى الدرجات، فسما على الناس جميعهم، وأصبح لا يتقي عظيماً، ولا يخاف أحدا. وأبعد من ذلك فالجميع محتقر في نظره كشعرةٍ في مفرقه، يقول:

أيَّ محـــــــــــلّ أرتقـــــــــــي أيَّ عظـــــــــــيمٍ أتَّقـــــــــــي؟ **(الرجز)**

---

(1) عباس، فيصل: **التحليل النفسي للشخصية**، ط1، بيروت: دار الفكر اللبناني، 1994، ص120–121.

(2) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص48–49.

(3) التونخي، محمد: **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس**، ط1، 1975، ص214.

وكــــلُّ مـــا قـــدْ خلـــق اللـــــــ ـــــــهُ ومَـــــا لـــــمْ يخلـــقِ

محتقـــــــــرٌ فـــــــي هِمَّتـــــــي كشـــــعرةٍ فـــــي مِفرقـــــي[1]

فالإغراق في مدح الذات سمةٌ معروفةٌ لدى الشاعر، ولكنْ ما تبرير هذا الإغراق في المدح، والشعور بالعلو؟ أهو إحساس الشاعر بالتميّز؛ مما أسهم في تكريس تعاظم الأنا حتى المغالاة؟ أم إحساسه بنقص النسب؛ الأمر الذي دفع به للجوء إلى الأنا المتعالية؛ لتعويض هذا النقص؟

إن النزوع إلى التعالي والتسامي متجذر في ذات المتنبي، وهو مقوم من مقومات شخصيته، بما استشعره في تكوينه وطبيعته من إمكانات، أكسبته اعتداداً وثقة بالنفس، وتعالياً على الآخرين، حتى بات مقتنعاً أن لا أحد فوقه ولا أحد مثله[2]، يقول:

أمطْ عنكَ تشبيهي بما وكأنّهُ فَمَا أحدٌ فوقِي ولا أحدٌ مِثْلي[3] (الطويل)

فهذا البيت يحمل في دلالته العميقة تعالياً، وتفرداً مُرَسَّخين في أعماق الذات، مما جعلها لم تعد ترى لها مثيلاً يدانيها في المنزلة، فقد تعاظمت مطالب الذات، وتسامت على مطالب الآخرين.

إن المتنبي منذ الصبّا كان يتغنى بإنيّته، وظلت بذور الفخر تنمو في حياته وتتضخم في شاعريته، وهو على كثرة فخره بنفسه لم يخص قصيدة واحدة لهذا الموضوع، وإنما جاء فخره

(1) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي: **الديوان، شرح أبي البقاء العكبري**، ضبط وتصحيح مصطفى السقا، وإبراهيم البياري، وعبد الحفيظ شلبي، (د، ط)، دار الفكر، (د، ت)، 2 \341.

(2) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص53.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3 \161.

في الأغراض الأخرى كالمديح والرثاء، ونجده يقحم نفسه في القصائد جميعها، ويزج نفسه بها حتى باتت تلك عادة معروفة عن المتنبي.

وهو لا يستطيع أن يمدح دون أن يفتخر بنفسه، وكأنه لا يمدح أو يرثي أو يهجو، إلا ليرسم فخره، فالفخر شاهد على شاعريته وجذوة نظمه، وإذا وجدنا في مديحه هواناً، فإننا نجد في فخره إباء، وإن سلَط غضبه على مهجوويه، فإنه يستعين على الحطّ من قيمتهم برفع شأنه، وإذا وجدناه يرفع الممدوحين إلى أعلى المراتب، فلا ينسى أن يضع نفسه في مرتبة ممدوحه، أو أعلى منها، بل إنه يفخر ويمدح في بيت واحد[1].

وهو لا يرفع السادة، إلا ليتفوق عليهم، تماماً كما فعل في المدح البطولي؛ إذ نراه يصف العدو وصفاً سامياً قوياً، لينعم بعد ذلك على ممدوحه بصفات التفوق والعلاء[2].

ويظل الشعور بالعلو والسمو على الآخر هاجس الأنا لدى المتنبي، مهما عظم شأن الآخر وكبر. يقول مادحاً محمد بن سيار التميمي:

فلمّا رَآنـــي مقــبلاً هــزَّ نفسَـــهُ إليّ حسامٌ كلُّ صفحٍ لـــه حـــــدُّ (الطويل)
فلمْ أَرَ قَبلي مَنْ مَشَى البحرُ نَحْوَه وَلا رجلاً قامت تعانقُهُ الأُسدُ [3]

فهذه صورة للأنا تبرز ما استقر في أعماق الذات من السمو والرفعة على الآخر (الممدوح). وهذه الصورة جاءت بعد مقدمة طويلة تدور حول محور الذات – وعلى مدى نصف القصيدة– يمدح الشاعر فيها نفسه، ويحتضن ذاته، ويحاورها بنبرة من العبادة.

---

(1) التونخي، محمد: **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس**، ص214.
(2) المصدر نفسه، ص215.
(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\378.

إنَّ المتنبي كان يمدح نفسه أكثر من مدحه للآخر مهما ارتفع شأنه، وهو بذلك يزيل الفوارق الطبقية، حين يخاطب الملوك مخاطبة الأصدقاء والإخوان، وشخصية المتنبي تظل حاضرة في القصيدة المادحة من خلال الأنا المتضخمة التي تحتل الصدارة في القصيدة.

ولقد فطن الثعالبي "صاحب يتيمة الدهر" إلى ذلك عندما قرّر أن المتنبي يخاطب الممدوح من الملوك مخاطبة الصديق، ويرى "أنه مذهب تفرّد به واستكثر من سلوكه اقتداراً منه، وتبحراً في الألفاظ والمعاني، ورفعة لنفسه عن درجة الشعراء، وتدريجاً إلى مماثلة الملوك"(1).

ومن عادة الشعراء الحرص على التقرّب من الممدوح ليغدقَ عليهم الجوائز والأموال، وهذا أمر طبيعي ومألوف في سياق المديح، إلا أن كل شيء جائز لدى المتنبي، فقد جعل الممدوح خائفاً من رحيله، وحريصاً على بقائه الأمر الذي جعله يختص المتنبي بأثمان الخيول، حتى يمنعه من الرحيل، فالخيول وسيلته للرحيل، وهذا ليس بغريب عنه إنه المتنبي.

يقول مادحاً الحسين بن علي الهمداني:

حَبَاني بأثمانِ السوابقِ دونَها   مخافةَ سيري إِنّها للنّـــوى جُنْــدُ(2)   (الطويل)

والمتنبي يتحلّى بكل الصفات الحسنة منذ الصغر، فهو ابن الحروب، وابن السخاء، والضرب بالسيف والرمح، وابن قوافي الشعر، والأراضي البعيدة:

---

(1) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد المجيد، ط2، القاهرة: مطبعة السعادة، 1956، 1\207.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\8.

أنا ابنُ اللقاءِ أنا ابنُ السـخاءِ   أنا ابنُ الضرابِ أنا ابـنُ الطعـانِ   (المتقارب)

أنا ابنُ الفيافي أنا ابنُ القَوَافي   أَنا ابنُ السروجِ أنا ابنُ الرعـانِ[1]

ووصل به الأمر إلى أن يرفع منزلته ليساويها بالأنبياء، ولا نستغرب هذا من إنسان رفع نفسه فوق الناس جميعاً من شعراء، وشعوب، وأمراء، يقول:

ما مَقامي بـأرض ِ نخلـة َ إلا   كمقام ِ المسـيح ِ بـين َ اليهـود ِ   (الخفيف)

مفرشِي صهوةُ الحصانِ ولكـ   ـن قميصِي مزرودةٌ مِنْ حديدِ[2]

فإقامته في دار نخلة كإقامة –عيسى عليه السلام– بين اليهود، وأهل هذه القرية أعداء له، كما كان اليهود أعداء لسيدنا –عيسى عليه السلام–.

أي كبرياء تلك التي حملت المتنبي على أن يشبه نفسه بالأنبياء؟ إنها الكبرياء التي ولدت فيه، وظهرت في صباه، ورافقته إلى آخر حياته، حتى أشبعت الديوان بحضورها[3].

إن نفس المتنبي عظيمة، لها من الحياة موقف وطموح لا يعرف غاية، ولا تقنع بالقليل ولا تكتفي بالتمني والتسلية بالأمل دون العمل، فالمتنبي أول شاعر عربي يكسر طوق الاكتفاء والقناعة، ويحول المحدودية إلى أفق لا يحد[4].

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\189.

(2) المصدر نفسه، 1\319.

(3) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ط11، بيروت: دار العلم للملايين، 1977، ص341.

(4) أدونيس، أحمد سعيد: **مقدمة للشعر العربي**، ط3، بيروت: دار العودة، 1979، ص57.

يقول مادحاً نفسه:

ليسَ التعللُ بالآمالِ من إِرَبى ولا القناعةُ بالإقلالِ مِنْ شـــيَمي[1] (البسيط)

وأبو الطيب المتنبي طبع على الكرم والشجاعة منذ خلق، وحمائل سيفه طوال، وعماد بيته يراه القاصد من بعيد، ورمحه تحمله كف محارب قوي، وسيفه يبادر آجال العباد، فيقتلهم قبل انقضاء أيامهم المكتوبة لهم، يقول:

طويلُ النجادِ طويلُ العمادِ طويلُ القناةِ طويلُ الســنانِ (المتقارب)

حديدُ اللحاظِ حديدُ الحفاظِ حديدُ الحسامِ حديدُ الجَنــانِ

يسابقُ سَيفي منايا العبــادِ إليهمْ كأنهُما في رهـــانِ[2]

إن اعتزاز المتنبي بإنيته يرافقنا على مدى رحلتنا معه، لكنه يشتدّ حينا، ويضعف حينا، ويعلن عن نفسه دائماً، وهذا المدح الذاتي موازٍ لمدائحه العديدة، مواكب لحالاته النفسية المتقلبة التي عاشها، ومصور لصراعاته مع الإحباط والحسد والفشل والأمل المفقود. ونبرة الأنا في الطور الأول من حياته صاخبة لا تضمها أرض، ولا تحدها سماء، ولا يلجمها عقل[3].

قيل إن رجلاً أخبر المتنبي كلاماً قيل فيه من باب الذم، فأجابه المتنبي بأنه سيد قومه وأعظمهم، ومع ذلك يثيره السفهاء بكلامهم، ليغضبوه، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\39.

(2) المصدر نفسه، 4\190.

(3) سلطان، منير: **الصورة الفنية في شعر المتنبي (التشبيه)**، (د، ط)، الإسكندرية: منشأة المعارف، 2007، ص 218.

أنا عينُ المسوَّدِ الجحجاحِ هَيّجَتْني كِلابُكُــمْ بالنُبــاحِ[1] (الخفيف)

وإن لم يسل دم المتنبي على الرماح في الحرب، لا يستحق أن يدعى أخا المجد والكرم، ومن يراه في الحرب، وهو عطشان يمتنع عن الشرب خوفاً منه، فيموت، ومن يراه في المنام يهجر النوم؛ حتى لا يراه، يقول:

إن لم أُذَرْكِ على الأرماحِ سائلةً فلا دعيتُ ابنَ أمّ المجدِ و الكرمِ (البسيط)

منْ لوْ رآنِي ماءً ماتَ مِنْ ظمأ ولَوْ مثلتُ لهُ في النومِ لم ينمِ[2]

ولا يعلم الجاهل أن المتنبي في الحال التي يملك فيها الأرض كلها، يشعر بأنه قليل المال، وإذا وصل السماء، وركب السماكين كان رجلاً عادياً، فنفسه المتعالية تريه كل شيء يطلبه حقيراً، والغاية البعيدة قصيرة في عينه، والمتنبي ثابت من شدة وقاره لا يحركه شيء كالجبل؛ حتى أنه ظلم، فلم يصبر على الظلم، وتحرك لدفع الضيم عن نفسه، يقول:

ويجهلُ أَنّي مالكُ الأرضِ مُعسرٌ وأنّي على ظهرِ السّماكينِ راجــلُ (الطويل)

تُحقِّرُ عندي هِــمَّتي كلَّ مَطْلَــب ويقصُرُ في عَيْني المَدَى المتطاولُ

وما زلْتُ طوْداً لا تزولُ مناكِبِي إلى أَنْ بَدَتْ للضيْمِ فِــيَّ زلازلُ[3]

إن مغالاة المتنبي في مدح نفسه دفعت بعضهم كابن سكره، والهاشمي، والحاتمي، إلى اتهامه ببعض العقد النفسية، فقالوا إن الإنسان الذي يشعر بنقص ما جسمياً، أو مادياً، أو اجتماعياً يحاول أن يعوض ذلك النقص بشيء ما، فالأعمى يحاول أن يسبق المبصرين بإتقان

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\242. المسود: سيد القوم، والجحجاح: السيد العظيم.

(2) المصدر نفسه، 4\43-44.

(3) المصدر نفسه، 3 \175. السماكين: نجمان في السماء. والطود: الجبل العظيم.

حفظ القرآن الكريم، أو بالعزف على آلة موسيقية، أو بنظم الشعر الذي لا يقدر على مثله الآخرون. واعتماداً عليه لم يستغربوا عن المتنبي تلك المبالغات التي لا تعقل. وإذا أردنا أن نكون منصفين فعلينا ألا نستغرب هذا من إنسان ظهرت عليه النجابة منذ الصغر، فقد نظم الشعر وهو في الكتّاب[1].

وليس أدل على نبوغه المبكر من قصيدته التي قالها حين سجن مخاطباً السجان مؤنباً إياه لإقامته الحد عليه، وهو لم يبلغ بعد، ولم تجب عليه الصلاة، يقول:

تَعَجَّلُ فيَّ وجوبُ الــحـــدودِ   وَحَدّي قبل وجوبِ السجودِ[2] (المتقارب)

وكثيرٌ هم الذين ظهرت عليهم النجابة قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، وسر عبقرية المتنبي يكمن في براعته في استخدام المفردة العربية، وبمعرفته بصياغتها مع أخواتها، وبقدرته على تصويرِ المتصارعات في الحياة من ناحية فكرية وفنية أيضاً.

ومن يطلب الشرف، والرتب العالية، استوت عنده الحياة بالموت؛ لأنّ الأمور العالية تعرّض الإنسان للمهالك والمخاوف، والمتنبي وطن نفسه على الهلاك، وصبر على ذلك، ولم يبال، يقول:

وَمَنْ يبغِ ما أبغي مِنَ المجدِ والعُلا   تساوَى المحايي عندهُ والمقاتــلُ[3] (الطويل)

---

(1) عارف الحسن، نهى. وشيخ بكري، أمين: **المتنبي دراسة نفسية وأسلوبية**، ط2، بيروت: دار العلم للملايين، 2003، ص38.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\346.

(3) المصدر نفسه، 3\177.

وذات المتنبي تجاوزت في بعض الأحيان إلى المستحيل، حين راحت تجسد المجرد وتشخصه آخر تتعالى عليه وتتعاظم، فمثله لا تصيبه النكبات؛ لأنّه حازم يدفعها بحزمه، ولو كان الزمان شخصاً، وبرز إليه في الحرب لخضب شعر رأسه. والزمان لم يحقق مراده من الشاعر، ولم يغير من حاله، يقول:

أَمِثْلـــي تـــأخذُ النكباتُ منـــــهُ ويجـــزعُ مِـــنْ ملاقـــاةِ الحمـــامِ (الوافر)

ولو برَزَ الزمانُ إليَّ شخصـــاً لَخَضّبَ شَـــعْرَ مفرقِـــه حُسَـــامي

وما بلغتْ مَشِيَّتَها الـــلّـــيالـــي ولا سارَتْ وفي يَدِها زِمـــامي[1]

إن من المتوقع أن يكون موقف الشاعر كموقف غيره من الناس في مواجهة الموت ومصائب الزمان. لكن الشاعر يفاجئ المتلقي ويدهشه، ويخلق توتراً بين أفق النص وأفقه، من خلال التحدي المضمر للموت، ولمصائب الزمان المتجسد في جدل الأنا مع الزمان، وهي تتخطى حدود الواقع، حيث تبرز متعالية على الزمان قاهرة له، وعصية على الليالي متمردة عليها[2].

لقد توضح في النماذج الشعرية السابقة حضور الأنا، وكان حضورها طقساً من طقوسه الشعرية. والمتنبي صنع بذلك هالة كبيرة لنفسه ولشعره، لا ندري هل كان على صواب في كل هذا أم لا؟ أم أنه يتمتع بكثير من الصفات الإيجابية كالشجاعة والمروءة والإبداع ..إلخ. إلا أنه بالغ في وصف ذلك؟ لكن إقحام الشاعر لأناه المتضخمة بين الفينة والأخرى، حقيقة لا تخفى على أحد.

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\45.

(2) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص60.

تجليات الأنا في شعر المتنبي:

أولاً: الفخر في المقدرة الشعرية:

بما أن الذات الشاعرة قد وعت دورها الريادي، والقيادي في مملكة الشعر بما تمتلكه من قدرة على الإبداع، وقوة في التأثير، وبما حققته من حضور أدبي على مستوى جماهيري، كان من المتوقع أن تتعالى وتتسامى على الجميع، وعلى رأسهم الشعراء[1].

فإذا أَنْشَدَ سيف الدولةِ شاعر من الشعراء كان عليه أن يجزل العطاء للمتنبي؛ لأن الشعراء جميعهم يرددون شعره ويكررونه عليه. فشعر المتنبي هو الأصل وغيره يكرر الألفاظ والمعاني لتكون صدى لشعره، ولهذا يطلب عدم الاكتراث بالآخرين، وتوجيه النظر إلى شعره وحده، يقول:

أجزِني إذا أُنْشِدْتَ شِـعْراً فَإِنَّمـا   بِشِـعري أتـاكَ المـادحونَ مـردّدا (الطويل)

وَدَعْ كلّ صوتٍ غير صوتي فإنَّني   أنا الصائحُ المحكيُّ والآخرُ الصَّدَى[2]

إن إدراك المتنبي تفرده وتميزه في الساحة الشعرية، كان يذكي في تكريس تعاظم الذات على نحو مبالغ فيه، فمنذ ظهر المتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس، واختصم الأدباء والنقاد في شعره، وقطعوا الأزمان المتواصلة في تحديد أغراضه، وتعصب له فريق، وقلل من شأنه فريق، وكان من الذين قللوا من شعره "الصاحب بن عباد" الذي ألف فيه رسالة سماها "الكشف عن مساوئ المتنبي" أقامها على التنقص منه، والحطّ من مقداره، وقد ذكر الرواة أن الصاحب كان هين المكانة حين وفد المتنبي على ابن العميد، وكان يود لو قصده أبو الطيب؛ فلما تجاهله جزع

---

(1) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص57.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\291.

وسخط، وألف فيه هذه الرسالة: ذكر فيها من شعر المتنبي أمثلة للغموض، والتعقيد، والركاكة، وقبح الألفاظ. وكان أبو الفتح "عثمان بن جني" من ناحية أخرى يرفع من مقداره؛ ويشيد بذكره[1].

رزق المتنبي من الشهرة واشتغال الناس بأمره حظاً لم يرزقه أحد قبله، ولا بعده من شعراء العرب، فقد سار شعره كل مسير، ورويت قصائده في كل أرض فيها ناطق بالعربية[2].

يقول الكثير من الأدباء إن أبا الطيب المتنبي كان مجدوداً في شعره، فلم يسعد قبله، أو بعده شاعر بما سعد به من اهتمام رجال الأدب بكلامه، واحتفالهم به، وتناول شعره بالشرح والنقد والتحليل[3]، وكأنه كان ينظر إليهم حين قال:

أنا الذي نَظَرَ الأعمى إلــى أَدَبــي   وأَسْمَعَتْ كلماتي مَــنْ بِــهِ صَــممُ   **(البسيط)**

أنامُ ملءَ جفوني عــن شَــوَارِدِها   ويسهرُ الخلقُ جرَّاهــا ويَختصــمُ[4]

لقد قدم لنا أبو الطيب نفسه بصورة تعزز الثقة بالتميز والتعالي، ففاقد البصر نظر إلى أدبه، وفاقد السمع استطاع سماع شعره الذي يصدح بين جميع الناس.

---

(1) الجرجاني، علي: **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل، وعلي محمد البجاري، ط3، دار إحياء الكتب العربية، (د، ت)، المقدمة، ص ح.

(2) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ط3، بيروت: دار الكتاب العربي، 1966، ص193.

(3) الإسكندري أحمد، وآخرون: **المفصل في تاريخ الأدب العربي في العصور القديمة والوسيطة والحديثة**، ط1 بيروت: دار إحياء العلوم، 1994، ص282.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\367.

وقد حرص الشاعر من خلال هذا البناء الفني الموحي على إبراز الأنا بصورة متعالية من خلال قطع النسق بعناصر غير متوقعه، تفاجئ المتلقي وتخالف خبرته ومعرفته، وهذا باد في قوله (نظر الأعمى) و(أسمعت كلماتي من به صمم). فقد حاول الشاعر بهذا التعبير مشاكسة المتلقي وإثارته، وذلك بخرق معارفه، وتجاوز الحقيقة، وبالتلاعب بالكلام، إذ كيف للأعمى فاقد البصر أن ينظر إلى أدب المتنبي؟ وكيف للأصم فاقد السمع أن يسمعه؟[1]

لعل الشاعر قد استشعر تميزه عن غيره من أهل الأدب، وامتلاكه للمجد الأدبي، فراح يرسم صورة نموذجية لذاته الشاعرة المتعالية تستند إلى حقيقة راسخة، وهي قدرة أدبه على التوصيل المثير للمتلقي، على القدر الذي أمل وتوقع[2].

إن النزعة الاستعراضية تكاد تكون سمة مميزة للإبداع الأدبي، والفني بعامة، وتهدف إلى الحصول على إعجاب ما من الآخر، وهذا الإعجاب يؤدي بدوره إلى دعم الثقة بالذات. لذلك نجد الشاعر يقول: "أنام ملء جفوني عن شواردها" ولا ينام ملء الجفون إلا من اطمأنت نفسه، والمتنبي اطمأنت نفسه إلى تأدية مهمته، وهي الارتقاء بالشعر إلى مستوى الإبداع[3].

والمتنبي إن أُعْجِبَ بنفسه، فهو على حق، برأيه، أليس هو صاحب القصائد المميزة، ومنشئ القوافي، وسبب غيظ الحساد الذين يتمنون الوصول إلى مرتبته:

---

(1) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص55.

(2) القعود، عبد الرحمن: **في الإبداع والتلقي عالم الفكر**، (د، ط)، 1997، ص174

(3) حرب، سعاد: **الأنا والآخر والجماعة (دراسة في فلسفة سارتر ومسرحة)**، ط1، بيروت: دار المنتخب العربي، 1994 ص15.

إنْ لَمْ أَكُنْ معجباً فعجبُ عجيبٍ   لم يَجِدْ فوقَ نفسِهِ مِــنْ مزيــدِ   (الخفيف)

أنا تربُ النَّدَى وربُّ القــوافي   وَسِمامُ العدا وغيظُ الحسودِ[1]

إن المتنبي وإن كان من أسرة فقيرة، وإن طعنه بعضهم في نسبه؛ إلا أنه استطاع أن يثبت وجوده على مسرح الحياة الأدبية، فكان تميزه في الساحة الأدبية دافعاً لتعظيم أناه، فشعره بمثابة السلاح الذي يجابه به العدو، وهو السلاح الذي يستفز به كل من هم حوله، ممّن عايروه بفقره، وانحدار أصله.

وكان المتنبي لسيف الدولة كالرمح الذي يطعن به الأعداء. وأهل الدهر يروون شعره لشدة حسنه، فهو كالقلائد التي يتقلدها الناس، يقول:

وما أَنــا إلاّ ســمهرِيّ حملتَــهُ   فَـــزَيَّنَ معروضـــاً وراعَ مُسَـــدَّدا   (الطويل)

وَمَا الدهْرُ إِلاّ مِنْ رُواةِ قلائــدِي   إذا قُلتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدّهرُ منشدَا[2]

لقد ذاع شعر المتنبي، وتسابق الأمراء في طلب المدح منه؛ لئلا يقال إنهم دون مستوى من قصدهم بمدحه، وكتبوا إليه من كل صوب يستقدمونه[3]، وهو لم ينل هذه المنزلة عفواً، ولم يفضل الشعراء بخطوة من الجد، والتفاته من الحظ، وإنما نالها لنبوغ شعري نادر، وعبقرية

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\323-324.

(2) المصدر نفسه، 1\290.

(3) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص199.

عزت على سواه، ويكفينا أن نعرف أنه وصل إلى هذه المنزلة في عصر كان يموج بالمجيدين من الشعراء أمثال السري الرفاء، وأبي فراس الحمداني، وأبي العباس النامي، وغيرهم[1].

إن إحساس الشاعر بإمكانات هائلة في ذاته، جعله يتعالى على الآخر "بأناه" الفعلية الشاعرة، ولم تستطع أي قوة إخفاء تلك الأنا، وكسر الإرادة المستفزة بداخلها، ومن هنا نشأ الاختلاف مع الآخر، وبالتالي تم التعالي عليه بالتعاظم والتباهي.

"وقد كان المتنبي مفطوراً على كبر النفس، وبعد الهمة، فلم يقنع بما كان يتمناه سواه من الشهرة بالشعر أو بالأدب"[2] فطموح المتنبي أكبر من ذلك، فهو لطالما حلم بولاية أو بحكم يرضي غروره.

وقد أراد المتنبي أن يضع لنفسه إطارا من نوع خاص لا يجمعه، وغيره من شعراء البلاطات، ولولا شعور الأمراء بتميز المتنبي على أقرانه لما جاروه في هذا، فقد كان ينشد أشعاره على الأمير سيف الدولة الحمداني، وهو جالس على النقيض من غيره[3].

والمتنبي لم ينفرد بقول الشعر، لكن شعره بالذات يعين على المدح، ويصلح لذكر صفات الممدوح، وقد صرح بهذا في قصيدة مدح فيها "علي بن أحمد الأنطاكي"، وفيها يقول:

وما أنا وَحدي قلتُ ذَا الشّعرَ كُلَّهُ　　　ولكنّ شِعري فيكَ مِن نفسِهِ شِعرُ[4]　　(الطويل)

---

(1) الإسكندري أحمد، وآخرون: **المفصل في تاريخ الأدب العربي في العصور القديمة والوسيطة والحديثة**، ص282.

(2) زيدان، جورجي: **تاريخ آداب العربية**، (د، ط)، دار الهلال، 1961، 2\285.

(3) عليان، محمد: **المديح في بلاط سيف الدولة الحمداني**، (د، ط)، الإسكندرية: دار المعرفة، 1990، ص89.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2 \158.

إن المتنبي في كبريائه وتعاليه ومنزلته في الشعر واللغة، يتميز عن الشعراء الآخرين، فقد استطاع بفصاحته، وإبداعه أن ينسي الناس شعر سابقيه، ولا شك أن هذا الاحتفاء بالمتنبي يعظم من خطره، ويكبر من هيبته؛ مما يزيد عدد حساده والمتتبعين لشعره، فلما احتفل به الأمراء والرؤساء، اهتم الناس بأمره، حتى أصبح شغلهم الشاغل، وجميع ذلك منته إلى نهاية واحدة، هي نباهة الشأن، وسيرورة الكلام(1).

يقول الثعالبي: "ليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس، ولا أقلام كتّاب الرسائل، أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنعين، وقد ألفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه، وقصرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئة، وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإفصاح عن إبكار كلامه وعونه، وتفرقوا فرقاً في مدحه، والقدح فيه، والنضخ عنه، والتعصب له وعليه، وذلك أول دليل على وفور فضله، وتقدم قدمه، وتفرده عن أهل زمانه بملك رقاب القوافي، ورق المعاني، فالكامل من عدت سقطاته، والسعيد من حسبت هفواته، وما زالت الأملاك تهجي وتمدح"(2).

إن المتنبي فتح في الأدب ما لم يسمع بمثله في فتوح شعرائنا من أقدمين ومحدثين، وصار للمتنبي وحده أدب خاص قائم بنفسه في ديوان آداب العرب، وكتب عنه ما يوازي كل ما كتب عن شعرائهم في عصر كامل من عصورهم(3).

---

(1) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص201.

(2) الثعالبي، **أبو منصور يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ص127.

(3) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 195.

والمتنبي كان يرى في نفسه أكثر كفاءة ومقدرة من غيره، فها هو يطلب من سيف الدولة أن يميز بين شعره، وشعر غيره ممن لم يبلغوا درجته، يقول:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ   إذا استوتْ عندهُ الأنوارُ والظُّلَمُ[1]   (البسيط)

ثانياً: الفخر بالنفس العظيمة:

لقد قدم شعر المتنبي صورة ذاته، ورصد مختلف أحوال هذه الذات وتحولاتها، في صورة تكرس نزوع الأنا إلى التسامي والتعالي من خلال تضخيم المتنبي لذاته، وإسبال صفات العظمة عليها.

والمتنبي خرج من بلده وتغرب، وفارق الذين حاولوا التعاظم عليه بغير استحقاق؛ لأنه لا يستعظم أحدا سوى نفسه، ولا يقبل بحكم أحد غير الله الذي خلقه، يقول يريد نفسه:

تغرَّبَ لا مستعظما غير نفسِهِ   ولا قابِلاً إلا لخالقِهِ حُكْمـــا[2]   (الطويل)

ولا شكّ أن الانتقال من بلد إلى بلد، ومن وطن إلى وطن في ذلك العهد هو لون صريح من ألوان المغامرة والطموح والاعتداد بالنفس. وقد عاش المتنبي عمره، وهو يحمل في صدره عزم الشباب، ونفساً طموحة وروحاً مغامرة، وقلباً قلقاً وثاباً، وجنوناً إلى المجد والتعالي

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3 \366-367.

(2) المصدر نفسه، 4\107.

والعظمة وإيمان الواثق من نفسه، وما إلى ذلك من هذه الألوان، التي تتلاقى ظلالها في حياة العصاميين، الذين يرتفعون بنفوسهم من الضعة إلى قمة المجد، وذروة العلاء[1].

وقد كان يرى في نفسه رفعة الملوك والكبرياء، فهو وإن كان في زي شاعر له قلب الملوك، وعزمهم، ورأيهم، وشجاعتهم، يقول:

وفؤادي منَ الملوكِ وإنْ كـــا　　　نَ لِساني يُرَى من الشُـــعَراءِ[2]　　(الخفيف)

وقد شرف المتنبي بنفسه لا بقومه، بالرغم من أنهم أفصح العرب، لأن الضاد لم ينطق بها سوى العرب، فهم فخر لكل البشر، وإذا جنى جان، أو طرد أحدهم وخاف على نفسه، لاذ بهم ليأمن على نفسه، وكذلك المطرود من بلدة استغاث بهم، يقول:

لا بقومي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بي　　　وبِنَفْســـي فَخَـــرْتُ لا بِجـــدودي　　(الخفيف)

وبهمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضـّــا　　　دَ وعَوْذُ الجاني وغوثُ الطريــدِ[3]

إن تشبّث الشاعر بالنّسب، وتفاخره بالشرف، والتعاظم بما أوتي من مجد وفضل وتفوّق، أثار حقد الناس عليه من بني قومه، ومن الأمراء والملوك والعلماء والشعراء، وقد عبر عن ذلك في شعره، وفي مختلف قصائده[4].

---

(1) الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، (د، ط)، مصر: دار المعارف، 1959، ص 136-137.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\36.

(3) المصدر نفسه، 1\ 323.

(4) المحاسني، زكي: **نوابغ الفكر العربي**، ط5، القاهرة: دار المعارف، 1980، ص 75.

ونحن لا نعلم ما الذي دعاه إلى ذلك؟ أهو نقص النسب؟ أم نقص الأسرة الحنون؟ أم نقص المجتمع الحامي؟ أم نقص من نوع آخر؛ فأراد التعويض عنه، أم أنه مجموع تلك النقائص كلها[1].

والغريب أن المتنبي فخر بقومه، مع أنه يفخر على كل من وجد على هذه الأرض، ربما لأنه طعن بنسبه، فأراد بذلك الرد على هؤلاء برفع اسمهم، وإعلاء مجدهم ومكانتهم. وقد استطاع المتنبي أن يجعل من أجداده نماذج للمروءة العربية.

والمتنبي كان يصد المعرضين دوماً، ويتعامى عن تلميحاتهم، إلى أن أجابهم يوماً في قوله:

أنا ابنُ مَن بعضُهُ يفوقُ أبا الــ	باحثِ والنجلُ بعضُ مَن نجَلَهْ	(المنسرح)
وإِنَّمـــا يَـــذْكُرُ الجُـــدُودَ لَهُـــمْ	مَنْ نفــروهُ وأنفــذوا حِيَلَـــهْ	
فخراً لعضْـــبٍ أروحُ مشـــتمِلَهْ	وسَـــمهريٍّ أَروحُ معتقلَـــه[2]	

فهو لم يعين أباً أو جداً يرجع الطاعنون إليه ليتوثقوا، وإنما جعل نسبه فوق من يتقصّى نسبه، والمتنبي ليس بحاجة إلى الفخر بجدوده؛ ذلك أنه بحد ذاته مفخرة، والذي يحتاج إلى الفخر بجدوده هو من لا فخر له ولا فضيلة في نفسه، فيحتاج إلى فضيلة آبائه، وقد كرر هذا المعنى وفخر بنفسه لا بقومه، لأن فضله كان مشهوراً، ولم يكن له شرف من قومه.

ولهذه النزعة الجامحة ما يسوغها من تواضع نسبة، ووفاة أمه في طفولته، ونشأته في حجر جدته، ومرباه في البادية، واستيعابه ثقافة عصره، فبقيت عزّته كما أرادها قوية لم تكفكف

(1) عارف الحسن، نهى. وشيخ بكري،أمين: **المتنبي دراسة نفسية وأسلوبية**، ص 38.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3 \266–267.

من غلوائها الغربة، ولم تكسر شوكتها الأسفار، بل لم تهذبها السجون، فظلت متكبرة ومتغطرسة، والمتنبي ترك طابعه على أدبه، فوجه ألفاظه، وأساليبه، ومعانيه، وأفكاره، وصوره وعواطفه، وتجاربه إليه، فصار أدب القوة، ونتاج العنف(1) .

وينغمس الشاعر بالأنا حين يمزج الزهو بالنفس مع الشيم العربية المفعمة بالإباء والرجولة، ويظهر ذلك في قوله عند خروجه من مصر:

لتعلمَ مصرُ وَمَــنْ بــالعراقِ ومـــن بالعواصـــم أَنّــي الفَتَـــى (المتقارب)
وأَنّي وفيــتُ وأنّـــي أبيــتُ وأَنّي عَتَوْتُ عَلَـى مَــنْ عَتَــا(2)

ويعني بوفيت "سيف الدولة" وبأبيت "كافور".

وقد جعل نفسه فوق ما على الأرض، وأفضل ما في السماء حين قال:

أَنَا صخرةُ الوادي إذا ما زوحِمَتْ وإذا نطقتُ فإِنَّني الجوزاءُ (3) (الكامل)

والمتنبي كان يشعر شعور العظماء، ويقيس الأمور بمقاييسهم، ويلزم نفسه الجد الذي يلتزمونه في حركاتهم وسكناتهم، وتساوره المطامع التي تساورهم (4).

---

(1) شلبي، سعد إسماعيل: **مقدمة القصيدة عند أبي تمام والمتنبي**، ص32.
(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\41-42. النجل: النسل. العضب: السيف. السمهري: الرمح.
(3) المصدر نفسه، 1\15.
(4) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 185.

وقد تعاظمت مطالبه حتى تسامت على مطالب الآخرين، فنجده يقول:

يقولونَ لي ما أنتَ؟ في كل بلدةٍ وما تبتغي؟ ما أَبْتغيَ جَلَّ أَنْ يُسَمَّى [1] (الطويل)

إن وعي الشاعر بعلو همته، وسمو مطالبه، هو ما جعله يتسامى ويتعالى على الآخرين؛ لعله أدرك أن الحياة بلا حلم لا تستحق أن تعاش، وأنّ الذات بما منحها -الله تعالى- من إمكانات قادرة على التحدي والحلم، وأن استصغار الذات ربما يؤدي إلى الموت، ومن هنا كان اختلاف الأنا عن الآخر في الهمة والحلم، وفي الرؤية ومنهج الحياة [2].

لقد وعي الشاعر في استبطان نفسي عميق بعد غاياته وجموع طموحه، ومدى تقاصر الآخرين وعجزهم، فلذلك أيضا تواترت الأنا في فضائه الشعري بشكل بارز، وتجلّى فيها الاعتداد بالنفس، والتعالي على الآخر، وبرزت الأنا من خلال رؤية الذات بصورة تعزز الثقة بالتميز والتعالي [3].

وعندما يشعر الإنسان بأن الناس يكنون له الغيظ والحسد، ويشعر بمراقبتهم له يلجأ إلى تعظيم ذاته مستهدفاً تحطيم ذات غيره، فينقض على غيره بالنقد الهدّام، والأقوال الجارحة، أو المنتقصة [4]؛ لذا فلا عجب أن يستصغر المتنبي أهل زمانه، ويجعلهم كالتراب، يقول:

ودهــرٌ ناسُـــهُ نـــاسٌ صـــغارٌ وإِنْ كانَـــتْ لَهُـــم جثـــثٌ ضِـــخامُ (الوافر)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب:**الديوان**، 4\107.

(2) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص 54.

(3) المصدر نفسه، ص54.

(4) عباس، فيصل: **التحليل النفسي للشخصية**، ص 100.

ومَا أَنَا مِـنهُمُ بـالعيشِ فِـيهِم		ولَكِـنْ مَعـدنُ الـذَّهبِ الرغـامُ[1]

وظلت نزعة الفخر الذاتي تعلو وتتزايد حتى المغالاة، فالفخر بحد ذاته فخر بالمتنبي إلى أن صار فوقه وتحته، وصار رداء على منكبه، ونعلا في رجله. والله تعالى وضع المتنبي في منزلة سامية وقدر عال، ولم يقدم عليه أحد، وهو جوهرة يفرح بها كرام الناس؛ لأنه يمدحهم بما فيهم من فضائل، وهو غصة في حلوق اللئام؛ لأنه يقول فيهم ما يذلهم بين الناس، يقول:

وليفخرِ الفخرَ إذْ غدوتُ بِـهِ		مرتَـديا خيـرَهُ ومنتَعِلَـه (المنسرح)

أنا الذي بيّن الإلهُ لَـه الـ		أَقـدارَ والمـرءُ حيثُمـا جَعَلَـه

جوهرةٌ يفـرح الكـرامُ بهـا		وغصَّـةٌ لا تسـيغُها السـفله[2]

لقد وعي الشاعر جمود العالم من حوله، ووعي بعد همته ومضاء عزيمته، فتجلى له التباين مع الآخر في اهتماماته وفي همته، فتسامى بذاته وتعاظم بها على الآخ، بتحطيم الخوف الذي بداخلها، وباحتقار واستصغار أي قوة يمكن أن تقف في سبيلها حاجزاً، أو مانعاً يمنعها من الانطلاق والمضي فيما تعزم عليه، ولما كانت نفس الشاعر الأبية ترفض الإقرار بالواقع، والتسليم بالمفروض تحددت رؤاها في السعي للكمال المنشود في الحياة الكريمة، ويبدو أن الذي حفز المتنبي إلى التعالي على الآخرين، هو ما رآه في واقعه المعيش من خمول الناس، وجمود الحياة من حوله، فأراد لما يتمتع به من همة عالية، وطموح أن يتعالى على الحياة الراكدة، وعلى الخمول الذي يراه متجسداً في كل واقعة، وأراد الارتقاء إلى حياة أكثر إنتاجا وفاعلية،

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\70

(2) المصدر نفسه، 3\268.

فعاش اللامتوقع فكراً وحلم به عملاً وفعلاً، ومن هنا جاءت بعض أبياته لتمثل إيجابية الحياة والإنسان، باستثارة عناصر الخير والكمال فيه [1].

فهو يرى أن العاقل من أقبل على الدنيا كما هي مهملاً ملاهي اللذة، مسلحاً نفسه بالقوة، فلم يرتح إلى صديق بل عوّل على نفسه، وطلب المجد في أسمى أشكاله، يقول:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَـــرُومِ   فَلا تَقنَعْ بما دونَ النّجـــومِ[2]   (الوافر)

مضحياً في سبيل المجد أجلَّ التضحيات، غير متهيّب شيئا حتّى الدم والموت؛ لأن النكوص والجبن ذلة واستكانة وحرمان في حياة تمضي ولا تعود [3].

يقول ابن رشيق في العمدة: "أمّا أبو الطيب، فكان في طبعه غلظة، وفي عتابه شدة، وكان كثير التحامل، ظاهر الكبر والأنفة" [4]

وحقاً هذا هو طبع المتنبي الذي لا يخفى على أحد، فالحساد معذورون في حسدهم له لأنه عقوبة عليهم، فزيادته تظهر نقصهم؛ لأنه يفوقهم في الفضل، وبذلك يعاقبهم لأنه؛ يتقدم عليهم، وهو مصدر غيظ لهم، يقول:

إنّـــي وإنْ لمـــتُ حاسِـــديَّ فَمَـــا   أُنْكِـــرُ أَنّـــي عقوبَـــةٌ لَهُـــمُ   (المنسرح)
وكيـــفَ لا يحسَـــدُ امـــرؤٌ عَلَـــمٌ   لَـــهُ علـــى كُـــلّ هامَـــةٍ قَـــدَمُ

---

(1) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص52.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\119.

(3) فاخوري، حنا، **تاريخ الأدب العربي**، ط 5، بيروت: المطبعة البوليسية، (د، ت)، ص631.

(4) ابن رشيق، أبو علي: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط3، بيروت: دار الجيل، 1981، 1\59-60

يهابُـــهُ أبســـأُ الرجـــالِ بِـــــهِ   وَتَتّقِـــــي حَـــدَّ ســـــيفِهِ الـــــبُهَمُ

كَفَـــــانِي الـــــذَّمُّ أَنَّنِـــــي رجـــــلٌ   أكـــــرَمُ مـــــالٍ مَلَكْتُـــــهُ الكـــــرمُ[1]

وكيف لا يحسد المتنبي وهو كالعلم في كل فضل، وفاق الناس جميعاً، حتى أنه وضع قدمه فوق الرؤوس من شدة علوه، وكيف لا يحسد إنسان ملك من الهيبة ما يخيف أعز الأصدقاء، وملك من الشجاعة ما يهيب الأبطال على حد قوله.

والمتنبي كالذهب الذي لا يخبر الناس جوهره إلا بالسبك، فتزيد قيمته عما كانت عليه، يقول:

إنّي أَنا الذَّهَبُ المعروفُ مَخْبَرُهُ   يَزِيدُ في السبكِ للدّينارِ دينارا [2]   (البسيط)

والمتنبي بالرغم من كونه رجلاً عظيماً، ويتحلى بكل الصفات الحسنة، إلا أنه غريب في وطنه وبين أهله، يقول:

وهَكَذا كنتُ في أَهْلي وَفي وطني   إنَّ النفيسَ غَريبٌ حَيثما كانـــا[3]   (البسيط)

والمتنبي فاق في قوة بصره زرقاء التي كانت مضرب مثل في قوة الإبصار، يقول:

وأبصرَ مِنْ زرقاءِ جـــوٍّ لأنّنِـــي   إذا نَظَرتْ عَيْناي شَاءَهما عِلَمِـــي[4]   (الطويل)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\59-60.

(2) المصدر نفسه، 2\140.

(3) المصدر نفسه، 4\223.

(4) المصدر نفسه، 4\51. زرقاء: اسم امرأة من أهل جو حادة البصر.

ومنزل المتنبي أطيب وأفسح من منازل البشر كلها، وتجارته أربح تجارة ماذا بقي بعد؟ يقول:

أنا مِنْ جميعِ الناسِ أطيبُ منزِلا وأسرُّ راحِلةً وأربـــحُ متجـــرَا[1] (الكامل)

إنه من غير المتوقع أن تنحرف الذات في تعاليها عن ذوات الآخرين هذا الانحراف الحاد، في حين أن البشر تربطهم علاقة جدلية تقوم على أساس المساواة، مما زاد من إصرار بعض الباحثين على أن المتنبي مصاب بمرض يسمى (حب الذات). بدءاً من أبي فراس الحمداني مروراً بعبد الرحمن شكري وصولاً إلى يوسف اليوسف وعلي كامل جميعهم قال: إن (أنا) المتنبي المتضخمة وصلت به إلى حد الجنون [2].

والمتنبي يدّعي أنه لم يرض بعطاء الزمان لشرف همته وعلوها، ومع ذلك تواضع وقبل بعطاء أبي الفضل محمد بن العميد، يقول:

أعطَى الزمانُ فَمَا قبلتُ عطاءَهُ وأرادَ لي فأردتُ أَنْ أَتَخيَّرا [3] (الكامل)

فعطاء ابن العميد مقدم على عطاء الزمان، والمتنبي لا ينقاد لأحد حتى الدنيا، فقد تعاظم عليها بالرغم من كرهها ذلك، وهو لا يقبل الضيم، ولا تأسف نفسه على الدنيا حتى لو ذهبت عنها، والمتنبي ينال العز في كل ساعة، ونفسه لا تقبل الذلّ أبداً، يقول:

كَذَا أَنا يا دُنيا إذا شئتِ فاذهبي ويا نَفْسُ: زيدي فـــي كرائهـــا قُـــدْما (الطويل)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\172.

(2) انظر حرب، سعاد: **الأنا والآخر والجماعة (دراسة في فلسفة سارتر ومسرحة)**، ص12.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\163.

فَلا عَبَرَتْ بي ساعةٌ لا تَعزُّني   ولا صحبتني مهجةٌ تقبلُ الظلمـــا [1]

ثالثاً: الفخر بالشجاعة:

والمتنبي لم ينس بسالته في الحروب، فقد خاطب معاذ اللاذقي قائلاً له: يا معاذ هل يخفى عليك مقامي في الحرب؟ فأنا دوماً مع الأبطال، يقول:

أبا عَبدِ الإلـــهِ " معـــاذُ " إنّـــي   خَفِيٌّ عنكَ في الهيجا مَقـــامي[2] (الوافر)

فالرماح تقصفت قبل الوصول إلى إراقة دم المتنبي، والسيوف تقطعت قبل أن تقطع لحمه، يقول:

طِوالُ الرّدينيّاتِ يقصِفُها دمـــي   وبيضُ السُّرَيجيّاتِ يقطّعُها لَحمـــي[3] (الطويل)

الشرف وسعة الرزق يطلبان بالسيف، والمتنبي يحوز المجد كله بالسيف، ويكسب المال من الحرب يقول:

أَأطرَحُ المجدَ عَنْ كِتْفي وأطلُبُهُ   وأتركُ الغيثَ في غِمْدي وأنتَجِــعُ [4] (البسيط)

وهو في شجاعة الأسد، وإن كان آدمي الصورة، فقلبه قلب أسد، وإن كان من البشر، يقول:

فارْمِ بي ما أرَدْتَ مِنّي فــإنّي   أســـدُ القلـــبِ آدمـــيُّ الـــرُّوَاءِ[5] (الخفيف)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\109.

(2) المصدر نفسه، 4\44.

(3) المصدر نفسه، 4\50.

(4) المصدر نفسه، 2\222.

(5) المصدر نفسه، 1\36.

إن في اعتداد الشاعر بنفسه ما يظهر تعاليه على جميع الناس، وقد فهم الناس منه ذلك نظراً لخشونته معهم، لكن لربما لم يفعل ذلك تكبراً، بل بدافع بدويته حيث كان صريحاً أكثر مما ينبغي، وصادقاً مع نفسه ومع الآخرين، وجاداً لا يعرف الرياء ولا المجاملة [1].

والمتنبي لم يكن يخشى الردى، وإن اتهم بذلك، فقد اعتادت نفسه على ذوق المرارات، ومن اعتاد ذوق العلاقم حلا له طعمها، يقول:

فلا يَتهِمني الكاشــحونَ فَــإنّني رعيتُ الرَّدى حتى حلَتْ لي علاقمُــهْ[2] (لطويل)

وهو يقاتل الدهر وأحداثه وحيداً لا ناصر له سوى الصبر، وطول بقائه وسلامته ليس عبثاً، وإنما لأمر عظيم، ولو قدرت الآفاق على النطق لقالت: أمات الموت أم خاف الخوف حتى لا يخاف هذا ولا يموت؟ أي المتنبي لكثرة ما ترى من صبره، وإقدامه على المخاوف والمهالك، يقول:

أُطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوارِسِها الــدّهْر وَحيداً وما قَوْلي كــذا ومَعَــي الصّــبرُ (الطويل)

وأشْجَعُ مني كلّ يــوْمٍ سَــلامَتي وما ثَبَتَــتْ إلاّ وفــي نَفْسِــها أمْــرُ

تَمَرّسْتُ بالآفاتِ حتــى تركتُهــا تقولُ: أماتَ المــوتُ أَمْ ذعِــرَ الــذُّعرُ!

وأقْدمــتُ إقدامَ الآتيِّ كأنَّ لــي سِوَى مُهجَتي أَوْ كانَ لي عندَها وِتــرُ[3]

---

(1) الحسن، عارف الشيخ: **من حكم وأمثال المتنبي**، ط1، دبي: دار القلم للنشر والتوزيع، 1996، ص48.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\332.

(3) المصدر نفسه، 2\148.

فهو يقدم على المهالك إقدام السيل الذي لا يرد، حتى كأن له نفساً أخرى إن هلكت واحدة، عادت الأخرى.

وقد أسبغ المتنبي على أشيائه بعض صفاته، فهذه ناقته تحمل همة عالية، وتتحمل قطع المسافات البعيدة، يقول:

أرأيتَ هِمَّـــةَ نـــاقَتي فــي ناقـــةٍ   نَقَلَت يداً سُرُحا وخُفًّا مُجْمَــرَا[1]   (الكامل)

ويأخذ تمرد الشاعر على المجتمع بعداً أكثر تألقاً وشخصانية، فالمتنبي يعزز نفسه، ويعرضها عالماً فسيحاً من اليقين والثقة والتعالي في وجه الآخرين، وهو في شعره كله يحتضن ذاته، ويناجيها ويخاطبها في نبرة من التقديس، فيأتي شعره كتاباً في عظمة النفس الإنسانية، يسيره الجدل بين اللانهاية والمحدودية، حيث الطموح الذي لا يعرف غاية ينتهي عندها، والعالم الهرم الذي لا يقدر أن يتحرك ويساير هذا الطموح [2].

والمتنبي كثير السفر وخبير في الأرض، وهو من أشد الناس معرفة بها لكثرة أسفاره، فكأنه بسطها من شدة علمه بها، فكان كبني الإسكندر الذين ضرب بهم المثل في الشجاعة، وعزم الأمور، يقول:

كأني دحوتُ الأرضَ من خبرتي بِها   كأني بَنى الإسكندرُ من عزْمـــي[3]   (الطويل)

والمتنبي يتمتع بالقوة الجسدية كذلك، ولكن ما الذي صقل جسده، وأكسبه كل هذه الفصاحة وقوة الباس؟

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\168. الخف المجمر: الشديد الصلب.

(2) أدونيس، أحمد سعيد: **مقدمة للشعر العربي**، ص55.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\52. الدحو :البسط

إن المتنبي كان يسافر مع أبيه إلى بلاد الشام، وكان ينقله من باديتها إلى حضرها، ومن مدرها إلى وبرها، ويسلمه في المكاتب، ويردده في القبائل حتى نما جسمه وعقله، ونضج لسانه، وأصبح فتى يملأ العين والأذن، ويكثر من ملازمة الوراقين، وأهل العلم والأدب، وقد تعلم أصول القرمطية في البادية، وحين توفي والده كان قد ترعرع وشعر وبرع [1].

فها هو يتغنى بقوته الجسدية وشجاعته واصفاً سيره في البوادي، يقول:

أواناً في بيــوتِ البــدْوِ رحْلــي   وآونــــةً علـــى قَتَـــدِ البعيـــرِ   (الوافر)

أُعرّضُ للرماحِ الصُّــمِّ نحــري   وأنْصِبُ حَــرَّ وجهــي للهَجِيــرِ

وأسْري في ظلامِ الليلِ وحْــدي   كأنّي مِنْــهُ فــي قمــرٍ مُنيــرِ [2]

وهو لا يخاف الموت أبدا، وقادر على هزم الأعداء لشدة عزمه، وقوة جسده، وهو كفيل بسفك دم الناس جميعاً، يقول:

أفكّـــرُ فـــي معـــاقرةِ المَنايـــا   وقَوْدِ الخيْــلِ مشــرَفةَ الهَــوَادي   (الوافر)

زعيماً للقَنـــا الخطــيِّ عَزْمــي   بسفكِ دَمِ الحواضِرِ والبَــوادي [3]

والمتنبي نجم لأصحابه إذا خفيت عليهم الطريق في الليل، وكل البلاد عنده سواء، فإذا سافر عن وطن لا يشوقه الإياب إليه، وهو بغنى عن السير على الإبل؛ لأنه يقطع المسافات الطويلة على قدمه كالعقاب. ولديه من القوة الجسدية ما يساعده على تحمل العطش، وإن كان حر الشمس قاتلاً، يقول:

---

(1) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ص128

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\142.

(3) المصدر نفسه، 1\ 355.

وإنّي لنَجْمٌ تهتدي بــي صُــحْبَتي إذا حالَ مِــن دونِ النُّجــومِ سَــحاب (الطويل)

غَنِيٌّ عن الأوطــانِ لا يســتفزني إلـــى بلـــدٍ ســـافرتُ عنـــه، إيـــابُ

وأصْدَى فَلا أُبْدي إلى الماءِ حاجةً وللشَّمسِ فــوقَ الــيعملاتِ لعـــابُ(1)

والراحة أكبر عدو للمتنبي الجواد، يقول:

وما في طبِّــهِ أنـــي جـــــــــوادٌ أَضَــرَّ بجسْــمِه طــولُ الجَـــمامِ(2) (الوافر)

فالطبيب لا يعلم بأن القعود عن السفر يضر الجسد، ولكن أي جسد؟ جسد الجواد الذي اعتاد على الحروب والفروسية، والتنقل من مكان إلى آخر، فراحة المتنبي تكمن في تحركه، وليس في قعوده، وهذا لأنه فهم أن الحياة حرب مستمرة، لا راحة فيها ولا أمان ولا رحمة ولا عدل. لا كلمة فيها لغير القوة أو الحيلة التي هي نوع من القوة. حرب قائمة دائمة في السر والعلن بين الأصحاب والأعداء، وفي صفوف الأقوياء والضعفاء، وفي رأي المتنبي "الدنيا لمن غلب" (3).

إنّ ما لفت انتباهنا هو الحضور الطاغي لأنا المتنبي، تلك الأنا التي توحي للمتلقي بغطرسته وعنجهيته، مع أنه يتمتع بالبطولة النادرة والشجاعة والإقدام، ويجمع الكثير من مؤهلات الرجولة والفروسية، فقد كان يحضر مواقع الحرب مع سيف الدولة، ويواجه الموت وهو ثابت القلب ورابط الجأش، إلا أنه بالغ في مدح ذاته، وتغنى ببطولاته وببسالته بصورة لافته، وهو دائم الاعتزاز بالنفس، والتفاخر بما أوتي من مجد وفضل وتفوق أليس هو القائل:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\191.

(2) المصدر نفسه، 4\148. الجمام :ضد التعب.

(3) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص218-219.

فالخيلُ والليلُ والبيــداءُ تَعرفُنـــي   والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ[1] (البسيط)

فكل هذه الأشياء لا تنكره، وتعرفه أشد المعرفة؛ لأنه من أهلها.

رابعاً: الفخر بالكرم:

لم ينس المتنبي باب الكرم؛ لأن كرمه ليس له حدود، ولأن التحلي بهذه الصفة منع الذم عنه، يقول:

كفــانيَ الــذَّمَّ أنَّنــي رجُـــــلٌ   أكــرَمُ مـــالٍ مَلَكْتُـــهُ الكَــرَمُ[2] (المنسرح)

هذا حديث نفس بعثت بعد طول رقاد، وضيق مرقد، ونفضت عنها أكفافها واجتهدت في أن تغسل ما علق بها من القذى، والأذى، والمذمة [3].

وكم من جبل شهد له بالجود والكرم، يقول:

وكَمْ منْ جبالٍ جبتُ تشهدُ أنني الــ   جبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنّني الــبحرُ[4] (الطويل)

وقوم المتنبي "قضاعة" أكثر الناس معرفة بصفاته، فهو كريم وشريف، وهاتان الصفتان تدلان على أنه يمني من قبائل اليمن، فكل كريم، حتماً، سيكون من اليمن كما يقول:

قضاعَة تعلــمُ أنـــي الفَتـــى الّـــذ   ي ادّخَـــرَتْ لصــــروفِ الزّمـــانِ (المتقارب)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\369.

(2) المصدر نفسه، 4\60.

(3) لاشين، كمال: **المتنبي في مصر**، ط1، القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، 1993، ص105.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\151.

وَمَجــدي يَــدُل بَنــي خِنــــدِفٍ   علـــى أنَّ كـــلَّ كـــريمٍ يمـــاني[1]

المتنبي كان مشغولاً بالتعبير عن شعوره بالعظمة، ذلك الشعور الذي استحوذ على مجامع قلبه. فكل قصائده تفخيم لمشاعر المجد، وفخر بالهمة التي تدفعه لذلك[2] .

وظلت نزعة الفخر الذاتي تتداول في أشعاره حتى أخريات أيامه، ولم نجد في نفوس الشعراء ما جمعته نفس المتنبي من صفات، تلك النفس التي صقلتها عوامل عدة، من سوء طالع عند الولادة، وتشاؤم وتشرد في البادية منذ الطفولة، ومخالطة المتصعلكين، وغير ذلك من الأمور التي ساهمت في تكوين هذا المزاج الذي تفرد به؛ فقد عاش في بيت فقير كئيب، ومدينة مضطربة، تصحبها الغزوات من حين لآخر، فتتركها تسبح في برك الدماء، وفي مجتمع يحسد الآخر على رغيف العيش، ويعاير الإنسان بما ليس له به يد[3]، كل هذه الأمور مجتمعه تركت بصماتها على هذه النفس الأبية الطموح.

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\188.

(2) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 191.

(3) خفاجي، هادي: **سنوات ضائعة من حياة المتنبي**، ط1، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1995، ص 263-264.

المبحث الثاني

الآخر الشاعر

إنّ الأمراء الذين تقاسموا الدولة العباسية تنافسوا على اجتذاب العلماء، والأدباء، وكان يتوهم أحدهم أنه سيصبح أعلى مكانه إذا ضم بلاطه أكبر عدد من العلماء، والأدباء، وخير دليل على هذا أن أحد وزراء المقتدر بالله العباسي خصّص للشعراء عشرين ألف دينار سنوياً، فضلاً عن الهبات العينية. إن مثل هذا المبلغ الذي يخصصه وزير واحد للشعراء، يفسر لنا السبب الذي جعل الصاحب بن عباد، وابن العميد، وحاكم دمشق، وسيد مصر، وأمير حلب، وحاكم اللاذقية يتنافسون في استقدام المتنبي [1].

إن تنافس الشعراء على دخول بلاطات الحكام كان من أجل الحصول على المراكز المرموقة، وبالتالي على الحياة الهنيئة التي يحلمون بها، حيث الرخاء المادي، والشهرة والاستقرار. وصاحب الحظ الأوفر هو الذي يحصل على مكان ثابت في هذه البلاطات؛ إذ كانت تمثل المرتكز الأول لحياة الرخاء والسعادة، وهذا يفسر الدوافع التي جعلت العلماء والشعراء يتخاصمون، ويقتتلون في هذه البلاطات، ويفسر سبب اندلاع النار في كل بلاط يحل فيه المتنبي، فقد كان يزاحمهم على لقمة العيش، وينافسهم على امتلاك قلب الحاكم، ويزلزل الأرض من تحت أقدامهم [2].

"وقد شغلت الألسن بأبي الطيب، وسهرت في أشعاره الأعين، وكثر الناسخ لشعره، والفائض في بحره، وطال فيه الخلف، وكثر عنه الكشف، حيث إن غرائبه طائرة، وأمثاله

---

(1) نقلاً عن عارف الحسن، نهى. وشيخ بكري، أمين: **المتنبي دراسة نفسية وأسلوبية**، ص 12-13.

(2) المصدر نفسه، ص 13.

سائرة، وعلمه فسيح، وميزه صحيح، يروم فيقدر، ويدري ما يورد، فكان مدعاة لحسد الحاسدين، وغيظ الكائدين" [1].

أجل لم يسلم المتنبي من كيد الحساد، وجميعهم كانوا دونه شعراً، وقدراً في نظر النقاد والأشياع، فنشأ له من جراء ذلك أعداء أعادوا إلى الأذهان ما كان يقوله شعراء الهجاء في القرن الأول للهجرة[2]. وعدا عن هجاء الشعراء لبعضهم بعض، فقد كان يسترخص المتآمرون على غيرهم من الشعراء إسالة دم أعظم شاعر مرّ على هذه اللغة.

إن تنافس الشعراء على اللحاق بالبلاطات، وعلى رأسهم المتنبي أثّر فعلاً في رفع مستوى الأدب فكراً وأسلوباً، فاللبيب اللبيب، والسعيد السعيد هو من يبتكر شيئاً، فيقدمه إلى هذا البلاط أو ذاك، ويحقق الفوز على سواه، إن هذا التنافس أفاد الأدب العربي، ورفعه إلى مقامات عالية في الفن، وفي مستوى التعبير والتفكير، إلا أنه أحرق المتنافسين، وأطار النوم من أعينهم، وأسهد أجفانهم [3].

وبما أن المتنبي أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكنا باللغة العربية، فكان من الطبيعي أن تتجه الأنظار إليه، وأن يكون مدعاة لحسد الحساد، وبالأخص الشعراء، حيث كان يحتل الصدارة في بلاطات الحكام، ومقرباً من قلوب كبار حكامها، وكان يعي الوعي كله بحقد هؤلاء الشعراء وحسدهم له، فهاجمهم، وصوّرهم بأبشع الصور.

---

(1) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا، (د، ط)، مصر: دار المعارف، 1963، ص180

(2) المحاسني، زكي: **نوابغ الفكر العربي (المتنبي)**، ص55-56.

(3) عارف الحسن، نهى. وشيخ بكري، أمين: **المتنبي دراسة نفسية وأسلوبية**، ص13-14

ففي كل يوم يظهر للمتنبي شويعر ضعيف، وصغير الحجم، ومع ذلك يحاول مباراته في القوة. والمتنبي قادر على التفوق عليه، وهو بذلك يعدل عنه ولا يكلمه، لأنه لا يراه أهلاً للكلام يقول:

أفي كلّ يومٍ تحتَ ضِبني شُـويْعِرٌ ضعيفٌ يُقَـاويني، قصـيرٌ يطـاولُ (الطويل)
لِساني بنُطقي صامتٌ عنهُ عـادلٌ وَقلْبي بصَمْتي ضَاحكٌ منـهُ هـازلُ
وأتعبُ من ناداكَ مـن لا تجيبُـهُ وأغيظُ من عاداكَ مَـن لا تُشـاكلُ[1]

وتصغيره لكلمة شاعر لم يكن عبثاً، وإنما من باب التحقير، وأكثر الحسد يأتي للمتنبي ممن يترفع عنه، وممن لا يماثله في المنزلة. وقد أشار في الأبيات السابقة إلى الذين كانوا ينازعونه عند سيف الدولة الحمداني، وليس من عادة المتنبي أن يتكبر عليهم، ولكنه يبغض الجهلاء الذين يتكلفون، ويظنون أنهم عقلاء، والمتنبي يأمل من سيف الدولة أن ينتبه إلى هؤلاء المقصرين في أشعارهم، ويهلك ما يتزينون به من الإفك والباطل، يقول:

وما التيهُ طِبِّي فيهمُ غيـرَ أنّنـي بغـيضٌ إلـيَّ الجاهِـلُ المتعاقِـلُ (الطويل)
وأكبرُ تيهـي أنّنـي بـكَ واثـقٌ وأكثـرُ مـالي لَـكَ آمِـلُ
لعلَّ لسيفِ الدّولـةِ القَـرْمِ هَبَّـةً يعيشُ بهـا حـقٌ ويهلِـكُ باطـلُ[2]

إن ذات المتنبي تعارضت، وتناقضت بما لديها من طموح، وآمال، وميول مع العالم من حولها، الأمر الذي أنشأ علاقة تصادمية ما بين هذه الذات الشاعرة والآخرين، مما جعل الشاعر

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\117.
(2) المصدر نفسه، 3\117- 118. القرم: السيد.

يحس بالغربة والتفوق في آن واحد، ويتجلى ذلك في شعره من خلال صور الجدل القائم على الصراع بين أناه والآخر [1].

والمتنبي يتحلّى بالقيم العربية الأصيلة، فهو أخو الجود والكرم، وهو مالك المجد الأدبي، وله السبق في ميدان الشعر، بما يحتويه شعره من طاقات خلاقة قادرة على التأثير، يقول:

أنا تِربُ النَّــدى وربُّ القَــوافي وسِـــمامُ العِـــدَا وغـــيْظُ الحسُـــودِ (الخفيف)

أنا في أمـــــةٍ تَداركَها اللّــــ ــه غريبٌ كصـــــالحٍ فـــي ثمــودِ[2]

إن استحضار الشاعر هنا لقصة النبي صالح –عليه السلام– مع قومه، يحمل في طياته بعداً جمالياً يجسد جدلية العلاقة ما بين الذات المتميزة والآخر الجاهل الحاسد. حيث إن النبي صالح عليه السلام كان صاحب دعوة إلهية سامية، ولكنه قوبل بالرفض، وعدم التجاوب من قومه، فكان هنا الاختلاف وكانت غربته كذلك. ومهمة الشاعر تشبه إلى حد ما مهمة الرسل، حيث تجاوز المتنبي الآخرين بالاستشراف والرؤية، فجابهه القوم بالرفض، والمعاداة حسداً وعداوة، وبخاصة فئة الشعراء [3].

والشعراء قاصرون عن اللحاق بالمتنبي، وأبعد من ذلك فإن البرق يكبو، ويتعثر إن حاول اللحاق به، يقول:

فَـــأبْلِغْ حاســـديَّ عليـــكَ أنّـــي كَبَـــا بـــرقٌ يحـــاوِلُ بِـــي لَحاقـــا[4] (الوافر)

---

(1) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص 64-65.
(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\323- 324.
(3) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص67.
(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\302.

وتنافس الشعراء في بلاط الملوك والأمراء أمر مألوف في السياق التاريخي، وطبيعي على مستوى الواقع، لكن المتنبي قرأ الواقع بشكل مختلف، حيث نظر إلى الآخر نظرة عدائية، بعد أن استشرى في آخره النفاق والحقد والغيرة، فعرف حقيقته، وأيقن حسده له، فكانت ردة فعله اللجوء إلى العلو، والتعاظم عليه، وبخاصة أنه أدرك الفارق الكبير بينه وبين غيره.

والإحساس بالتفوق، والاعتزاز بالنفس، والسخرية من الآخرين يدفع المتنبي إلى أن يجعل من الأمير داعية لشعره، يقول مخاطباً سيف الدولة:

بلغتُ بسيفِ الدَّولَـــةِ النّـــورِ رتبـــةً أنرتُ بِها ما بينَ غربٍ ومَشْرِقِ [1] (الطويل)

ولمّا تقاصر الشعراء عن الوصول لمنزلة المتنبي، ولما عجزوا عن إدراكه، أو اللحاق به أصابهم الحزن، والكمد بما أبدعه دون تكلف وعناء، يقول:

إذا شاءَ أَنْ يلهـــو بلحيـــةِ أحمـــقٍ أراه غُبَـــاري ثـــمَّ قـــالَ لـــه الحَـــقِ (الطويل)

وما كمدُ الحسَّـــادِ شَـــيْئاً قصـــدتُهُ ولكنّهُ مَـــنْ يـــزحَمِ البحـــرَ يغـــرقِ[2]

وهم أصغر من أن يعيرهم المتنبي اهتمامه، فليس لهم أي اعتبار في نفسه، وحسب رؤية الشاعر (من يزحم البحر يغرق)، ومن يتحمل مزاحمة البحر على عظمته وطغيانه؟! إن رؤية المتنبي جعلت من الذات بحراً لتجسد معاني القدرة والهيمنة، متمثلة إحدى صفات الممدوح لتتوحد بذلك الصفة بينهما، وهكذا تتماهى ذات المتنبي مع ذات الممدوح [3].

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\314.

(2) المصدر نفسه، 2\314.

(3) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص83-86

إن نظرات سيف الدولة صادقة، ولا تخطئ فيما تراه، وإذا نظرت إلى شيء عرفته، ولا تحسب الورم شحماً، أي لا تظن المتشاعر شاعرا، كما يظن بعضهم أن السقم صحة، والورم سمنا، ومن يساوي بين الصحة والسقم، والظلم والأنوار أبدا لا ينتفع في هذه الدنيا، يقول:

أعيذُها نظراتٍ منــكَ صــادقةٍ   أن تحسبَ الشّــحمَ فــيمن شــحمُه وَرَمُ   (البسيط)

وما انتفاعُ أَخي الــدّنْيا بنــاظِرِهِ   إذا استوتْ عندَه الأنـــــــوارُ والظُّلَمُ [1]

والمتنبي لازم سيف الدولة قرابة تسع سنوات، مدحه خلالها بأجمل القصائد وأغناها، ووصف معاركه، وأشاد ببطولاته، وهو بذلك يستحق البقاء في بلاطه، ولكن حياة البلاط حاشدة بالحسد، مملوءة بالدس، واستغلال النفوذ، ومحاولات التقرب إلى الأمير. وغرور المتنبي، وحدّة طبعه أثارا غيظ الحساد، فحاولوا الإيقاع به عند سيف الدولة، ولهذا حاول بالأبيات الآنفة أن يتقرب من سيف الدولة أكثر، طالباً منه أن يميز بينه وبين غيره من الشعراء، الذين لم يبلغوا درجته مهما حاولوا، وقد شبه نفسه بالنور، وشبه الشعراء الآخرين بالظلام [2].

وحساد المتنبي كثر لا ينتمون إلى فئة معينة، فمنهم الشعراء كأبي فراس الحمداني، وأبي الحسين بن لنكك. ومنهم اللغويون الذين ضاقوا ذرعاً بفصاحته، كابن خالويه. ومنهم الأمراء، وقد استخف بهم جميعاً [3].

ولعل أبا فراس الحمداني من أهم الشعراء الذين نافسوه، وأضمروا له الضغينة في بلاط سيف الدولة، فلطالما كان المتنبي يتعالى عليه، ويتناسى قدره ومكانته لدى سيف الدولة. وهو

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\366– 367.

(2) الشيراوي، أحمد: **أطلس المتنبي أسفاره من شعره وحياته**، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004، ص54.

(3) التونخي، محمد: **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس**، ص266.

جاهل يغتر بمجاملة سيف الدولة إياه، فيظن أنه متسامح معه لمجرد ضحكه الذي لم يكن إلا على جهله، والمتنبي بقي يبتسم له حتى سطى عليه وافترسه، وغضب عليه فأهلكه، فكان معه كالأسد الذي يكشر عن أنيابه، وليس بالضرورة أن يكون مبتسماً، فلربما أراد الافتراس، يقول:

وَجاهلٍ مدَّهُ في جَهلــهِ ضَحِكي   حَتّــى أَتَتْــهُ يــدٌ فرّاسةٌ وَفَــمُ   (البسيط)
إِذا نظرتَ نيوبَ اللَّيْـث بــارزةً   فلا تظنَّــنَ أَنَّ الليثَ مُبتسِــمُ[1]

ويرى بذلك أنه وإن أبدى بشره لأبي فراس الحمداني، لا يعني هذا أنه رضي عنه، وقد تناسى بذلك مقام أبي فراس، وصلته بسيف الدولة. هذا حديث شاعر أنفت نفسه أن يكون صاحبها أحد الأذيال، وقد أنس له سيف الدولة إثر هذه القصيدة، وقال بعض الرواة إنه قبّل رأسه وأجازه[2] .

وقيل عن أبي فراس إنه ازداد غضبا من المتنبي حتى إنه قال لسيف الدولة: "إنّ هذا المتمشدق كثير الإدلال عليك، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار، عن ثلاث قصائد، وممكن أن تغدق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره" [3].

فالمتنبي ماض في استطالته على الشعراء، واستعلائه عليهم، لا يصطنع في ذلك رفقاً ولا تواضعاً، وقد كشف عن عيوبهم، وسخر منهم، ونظر إليهم نظرة فوقية غير مكترث بهم، وكانوا يخفون له الكيد حين يرون إقبال الأمير عليه ورضاه عنه، في حين كانوا يظهرون المكر، والكيد له، حين يحسون بملل الأمير منه، ويشعرون بفتور العلاقة بينهما.

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\368.
(2) الحديدي، عبد اللطيف: **بين الأنا والآخر في مدحيات المتنبي**، ط1، القاهرة، 1998، ص30-31.
(3) البديعي، يوسف: **الصبح المبني عن حيثية المتنبي**، ص 80-81.

ومن الواضح أن صدر المتنبي قد ضاق بخصومه كل الضيق؛ ولم يعد قادراً على كتمان موقفه منهم؛ ولهذا أعلن ذلك، وقد استعان على خصومه بالأمير مبيناً حسناته، وتفوقه على غيره، يقول في ميميته المشهورة مخاطباً سيفا الدولة:

لكَ الحمدُ في الدُّرِّ الذي ليَ لفظُــه فإنــكَ معطيـــهِ وإنّـــي نـــاظمُ[1] (الطويل)

وقد قصد بالدرّ شعره، ويريد بذلك أن المعاني لسيف الدولة، والألفاظ له؛ لأنه يصف مكارمه من خلال هذه الألفاظ، ويقيد أفضاله.

وهو يطلب من الأمير أن يبعد أعين الشعراء الذين حسدوه عنه، فقد أصبح محسوداً بسبب نعمه عليه، يقول:

أزِل حسَدَ الحسّــادِ عَنِّــي بكبْــتِهِم فأنتَ الّذي صَيَّــرتَهُمْ لي حُسَّـــدَا (الطويل)

إِذا شدَّ زَنْدي حُســنُ رأيكَ في يدي ضربتُ بنصلٍ يقطَعُ الهامَ مغمَــدَا

وَمَــا أَنا إلا ســمهرِيّ حــَمَلْتَـــهُ فَزَيّــنَ مَعْرُوضــاً وراعَ مسَدَّدا[2]

إن أهل الدهر يروون شعر المتنبي، فشعره في الحسن كالقلائد التي يتقلدها الناس. وإذا سمع شعره الكسول تنشط، وإذا سمعه من لا يغني طرب، يقول:

وما الدّهرُ إلا من رواةِ قصــائِدي إذا قُلتُ شِعراً أصبَح الدهرُ منشِــدا (الطويل)

فَسَارَ بِهِ من لا يســيرُ مشَــمِّرا وغَنَّى بِهِ مَــنْ لا يغنّــي مغــرّدا

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\391.

(2) المصدر نفسه، 1\289-290.

أجزِني إذا أُنشدْتَ شــعراً فإنمــا بشعري أتاكَ المــادحونَ مــردِّدا[1]

ومن الطبيعي أن يجزل العطاء للمتنبي، كيف لا؟ والشعراء يرددون أقواله، ويكررون معانيه وألفاظه.

ومضى شأن المتنبي مع خصومه على هذا النحو، هو يصورهم بأبشع الصور، وهم يطعنونه، وشعر المتنبي هو الأصل وشعر غيره الصدى، فعلى سيف الدولة عدم الاكتراث والالتفات إلى غيره من الشعراء، يقول:

وَدعْ كُلَّ صوتٍ غير صوتي فإنَّني أنا الصائحُ المحكيُّ والآخــرُ الصَّــدَى **(الطويل)**
وقيَّدتُ نفسِي في ذَرَاك مَحــــبَّةً وَمَنْ وَجَــدَ الإحســانَ قيداً تقيـــــدا[2]

وما زال يستقطب حب الأمير بمدائحه التي ليس لها حد، وإقامته عنده بسبب محبته له، وإحسان الأمير له قيده أكثر فأكثر.

وها هو يطغى على شعراء سيف الدولة مرّة أخرى، فهو يغضب عندما يرى صفات سيف الدولة الجليلة دون واصف مجيد من الشعراء، فالشعراء الذين حوله قاصرون عن مدحه كالطماطم لا يفصحون. في حين أن المتنبي يقصد الممدوح في أرضه البعيدة أثناء الليل المظلم ليمدحه، فكان كالسرّ والليل كاتمة، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\290- 291.

(2) المصدر نفسه، 1\291-292. الصدى: الصوت الذي يسمع من الجبل.

غضبتُ لهُ لمّـــا رأيـــتُ صـــفاتِهِ بلا واصفٍ والشِّعرُ تهـــذي طماطمُـــهْ (الطويل)
كنتُ إذا يمّمـــتُ أرضـــاً بعيـــدةً سَرَيْتُ وكنتُ السِّرَ والليـــلُ كاتمُـــه[1]

فقد أحس المتنبي أن الشعراء سيمكرون به، ويكيدون له حين يعلمون بمكانته عند الأمير، فآثر أن يبدأ الهجوم عليهم، ولكن أي هجوم؟ الهجوم الصريح الذي لا كيد فيه ولا التواء؛ فهو قد سمع بسيف الدولة وصفاته الغرّ حين كان بعيداً عنه. ومعنى هذا أن شهرة سيف الدولة قد عمت الآفاق، ونظر المتنبي فلم يجد لهذه الصفات واصفاً يعطيها حقها، وإنما سمع شعراً سخيفاً يهذي به المتشاعرون الذين لا يحسنون العربية، ولا يجيدون التصرف بفصيح الكلام؛ فغضب لهذه الصفات، فأقبل هو حينئذ من مكان بعيد، متخفياً حتى لا يحس به أحد، ثم ظهر فجأة بين يدي الأمير، فأنشده وأرضاه، وبهر من حوله، وأفحم الذين تعودوا أن ينطقوا بين يديه، وصوّرهم بأسوأ الصور وأبشعها، مما أثار حفيظتهم، وأشعل نارهم، فكيف لشاعر مثله أن يتقدم عند الأمير بين ليلة وضحاها[2].

وكان سيف الدولة يميل إلى "أبي العباس النامي" الشاعر ميلاً شديداً، إلى أن جاءه المتنبي، فمال عنه إليه، فغاظ ذلك أبا العباس، فلما خلا به ذات يوم عاتبه قائلاً: أيها الأمير،لم تفضل عليّ ابن عيدان السقاء؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه، فلجّ وألحّ، وطالبه بالجواب، فقال: لأنك لا تحسن أن تقول مثلما يقول المتنبي [3] حين قال:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\340.

(2) حسين طه: **مع المتنبي**، (د، ط)، مصر: دار المعارف، 1962، ص199.

(3) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص80–81.

يعود من كــل فــتحٍ غيــرَ مفتخــرٍ وقد أغَـذَّ إليْــهِ غَيــرَ محتفــلِ[1] (البسيط)

أي أنت تفتح الفتوح العظيمة، ولا تفخر بها وتسرع إليها، ولا تحتفل بذلك. ونهض من بين يديه غاضباً، وعاهد نفسه ألا يمدحه أبدا، وهذا يدل على مدى كراهية الشعراء للمتنبي الذي نافسهم على لقمة العيش، ويشير إلى مدى إعجاب سيف الدول بشعره.

والشعراء يحاولون بلوغ غايته في الشعر ولا يقدرون، فهم كالقرود التي تحاكي ابن آدم في أفعاله، ويحاولون الحديث ولا يستطيعون، وجموعهم قليلة لا يبصرها الغراب مع حدة نظره، ولا يسمع أصواتهم الخلد مع حدة سمعه، يقول:

يرُومونَ شأْوي في الكــلامِ وإنَّمَــا يحاكِي الفَتى فيما خَلا المنطِقِ القِــردُ (الطويل)
فهُمْ في جَموعٍ لا يراها ابن رأيــةٍ وهم في ضجيج لا يحــسُّ بــه الخُلْــدُ
ومني استفادَ النَّــاسُ كــلَّ غريبــةٍ فجازُوا بتركِ الذَّمِّ إنْ لم يكُنْ حَمْــدُ[2]

والمتنبي أفاد الناس بغرائبه، لذلك يطلب منهم أن يجازوه على ذلك بترك المذمة إن لم يحمدوه.

والشعراء يحاولون الاهتداء بأفعال المتنبي ومكارمه، ومساعيه الجسيمة، ويحاولون التعلم من أفعاله يريدون بذلك محاكاة المتنبي، يقول:

من يهتدي في الفعــلِ مــالا يهتــدِي في القولِ حتــى يفعــلَ الشُّــعراءُ[3] (الكامل)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\39.
(2) المصدر نفسه، 2\9-10.
(3) المصدر نفسه، 1\20-21.

والمتنبي قد غلا في الثقة بالنفس، وأسرف في ازدراء في الخصوم، وتجاوز الحد في حسن الظن في الأيام، فلم تطرد حياته حلوة آمنة عند سيف الدولة، وما هي إلا فترة قصيرة حتى عاد الكيد له وكثر الطعن فيه، فاضطر إلى أن يدافع عن نفسه، وأن يهاجم حساده الشعراء بقوله إنه السابق في قول الشعر، والهادي إلى ما يغربه[1]، يقول:

أنا السابقُ الهادي إلى مــا أقولُــهُ   إذْ القــولُ قبــلَ القــائلين مقــولُ[2] (الطويل)

وكلام حساده عنه غير صحيح، وليس له أصول؛ إذ يتعجب المتنبي لأنه لقي المعاداة من غيره، على الرغم من فضله وعلمه وتقدمه في الشعر، الأمر الذي يوجب المحبة لا العداوة. ووجع حساده لا سبيل لعلاجه؛ لأنه إذا حل في القلب استوطن فيه وسيطر عليه، يقول:

وما لكلامِ النَّــاسِ فيمــا يريبُنــي   أصــــولٌ ولا لقائليــــهِ أصــــولُ (الطويل)
أُعادَى على ما يوجِبُ الحبَّ للفَتى   وأهــدأُ والأفكــارُ فــيَّ تجــــولُ
سِوَى وجــعِ الحسَّــادِ داوٍ فإنَّــهُ   إذا حــلَّ فِــي قلــبٍ فَلَــيْسَ يحــولُ
ولا تطمَعَنْ مِنْ حاسدٍ في مــودَّةٍ   وإنْ كنــتَ تبــديها لــهُ وتنيــــلُ[3]

والمتنبي لا يثق في الحاسد، وإن حاول إظهار المحبة والإخلاص له، وقد وجه كلامه لحساده الشعراء بكل صراحة، وبدون اكتراث بهم، ولكن كيف كان وقع هذا الكلام على الشعراء؟ لا شك إنه أثار حفيظتهم، وزاد من إشعال النار المتأجّجة في نفوسهم.

---

(1) حسين طه: **مع المتنبي**، ص266.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\108.

(3) المصدر نفسه، 3\109.

لقد أحس المتنبي بظلم المجتمع له وبحسده، فكيف لابن سقاء أن ينال ما ناله من الشهرة، إذ عوير بشيء لم يكن له فيه يد، أحس به بين أقاربه، وفي أزقة كندة وحضرموت، والسبيع وفي الحارات وفي الكتاب، وعند الوراقين، ولم يفارقه هذا الإحساس عندما فارق الكوفة إلى البادية فالجزيرة[1].

إن معايرة الناس للمتنبي بأبيه ساهمت في إبراز الأنا المتضخمة لدى الشاعر، وهذه ردة فعل طبيعية لإنسان عانى الكثير من التجريح والاحتقار، وكانت النتيجة أن استجاب سيف الدولة لصوت الحساد، وكان في مقدمتهم أبو فراس الحمداني والنامي "أبو العباس"، والسري الرفاء وغيرهم.

لقد أثّرت مكانة المتنبي لدى سيف الدولة على هؤلاء، فآذوه بالدس وبالوقيعة، وكان لتعاظم المتنبي أثر في تنكر الأمير له، بعد أن قربه وأحبه ومنحه آلاف الدنانير، وأقطعه من الأملاك ما يغنيه، ولم يكن الشعر وحده هو الذي ربط بين سيف الدولة والمتنبي، إن آمالاً كباراً في طلب المعالي واستعادة الأمجاد، والبلاد، كانت تجمع بينهما، وكان الأمير شاعراً أدبياً وسياسياً خطيراً، بصيراً بالنقد والبيان، فوجد في شعر صاحبه وحديثه صدى لما يجيش في خاطره، بل رآه مخلداً لمجده، فاستخلصه لنفسه وكرمه أجل تكريم. لكن المتنبي خالف الشعراء بعاداته فكان يستأذن أميره في إلقاء شعره جالساً، فزاد ذلك من غيظ حساده الشعراء، ولعل سيف الدولة كان في سره لا يطيق تعاظم المتنبي ومخاطبته إياه بلسان الملوك، وكأنه من أنداده[2] .

(1) خفاجي، هادي: **سنوات ضائعة من حياة المتنبي**، ص362.

(2) المحاسني، زكي: **نوابغ الفكر العربي (المتنبي)**، ص30-31.

وبالرغم من استهداف الشعراء للمتنبي، وكرههم له إلا أنه بقي شامخ النفس مما زاد من غيرتهم وحقدهم عليه، وقد طعنهم المتنبي بقوافيه، فوصفهم بأنهم أراذل الناس، ممن ليس لديهم فصاحة العرب، وتسليم العجم، يقول:

بأيِّ لفــظٍ تقــولُ الشــعرَ زِعنفــةٌ تجوزُ عندكَ لا عــربٌ ولا عجــمُ[1] (البسيط)

والمتنبي يعترف بأنه حسد على مكانته؛ فصعد بنفسه إلى عنان السماء، ونظر إلى الشعراء باحتقار وازدراء بعد وصوله إلى أعلى القمم، يقول:

فإنِّي قد وصــلتُ إلــى مــكــانٍ إليــه تحسـدُ الحَـدَقَ القلــوبُ [2] (الوافر)

وقد افتخر المتنبي بشعره وتغنى، فالشعراء جميعهم لا يستطيعون الإنشاد مثله يقول مخاطباً أحمد بن عبد الله الأنطاكي:

لا تجسُرُ الفصحاءُ تنشُدها هَاهنا بيتــاً ولكنّــي الهزبــرُ الباســلُ (الكامل)

ما نالَ أهــلُ الجاهليــةِ كلُّهُــمْ شِعْري ولا ســمِعَت بسـحريَ بابــلُ[3]

فمن شدة هيبة الأنطاكي، ومعرفته بالشعر وقدرته على انتقاد الشعر الجيد من الرديء، لا يتجرأ أحد من الشعراء الفصحاء الإنشاد بين يديه، أما المتنبي، فيقدر على ذلك لجودة شعره الذي لم ينله شعراء الجاهلية كامرئ القيس، وزهير، وطرفه، ولبيد، وغيرهم. ولم يسمع بسحره أهل بابل، وقد وصف نفسه في هذه الأبيات بالفصاحة.

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\373. زعنفة بكسر الزاي، والجمع زعانف، وهم اللئام.

(2) المصدر نفسه، 1\75.

(3) المصدر نفسه، 3\259. الهزبر: الأسد.

إن روعة قصائد المتنبي، وإعجاب سيف الدولة بها كانت مدعاة لحسد صغار الشعراء كذلك، ومدعاة لحسد الطامعين بنوال الأمير وجوائزه وأعطياته، فهم يرونها تنساب للمتنبي، ولا يصيبهم منها إلا القليل(1).

وها هو يطلب من سيف الدولة أن لا يستمع لغيره من الشعراء مرة أخرى ذلك أن كلامهم فاسد، ومن الأولى أن لا يسمع، يقول:

ولا تبــالِ بشــعرٍ بعــد شــاعرِهِ قد أُفسِدَ القولُ حتى أُحمِدَ الصّــمُمُ(2) **(البسيط)**

وكانت هذه الأبيات مؤذنة بانقطاع العلاقة بين المتنبي وأميره، وقد ظهر خصوم المتنبي عليه، فصرفوا سيف الدولة عنه، وتبين ذلك له واضحاً وجلياً حين كانت الخصومة بينه وبين ابن خالويه في مجلس الأمير، فأخرج ابن خالويه مفتاحاً من كمه، وشجّ به المتنبي حتى سال دمه، وتخضب وجهه. والأمير رأى ولم يقل شيئاً، ولم يصطنع، فخرج المتنبي محزوناً منكسر النفس يكظم غيظاً عظيماً(3).

إن الشعور بالغربة كان أمراً ملازماً للمتنبي، عدا عن أسفاره المتعددة، وتنقيبه في البلاد، وتعلقه بمجد حالم، أو غد واعد ثم خيبة أمله، وصدمته بالناس الذين حوله، كل هذه الأمور مجتمعة فرضت عليه اليأس، فاضطر إلى أن يجنح للهروب، فلا يكاد يستقر عند أمير،

---

(1) عارف الحسن، نهى. وشيخ بكري، أمين: **المتنبي دراسة نفسية وأسلوبية**، ص129.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\26.

(3) نقلاً عن حسين، طه: **مع المتنبي**، ص268–269.

أو يجد في بلاطه مأوى، أو ملجأ، حتى ينقلب عليه، فإذا به يرتفع بنفسه إلى مستوى الممدوح (الأمير) محولاً مديحه إلى عتاب[1].

فليس غريباً إذن أن يشقى المتنبي بهؤلاء الكائدين، وألا يطول ابتهاجه بالإقامة عند سيف الدولة الذي لقي عنده الأمن، والهدوء وتحقيق بعض الآمال.

ولمّا كان المتنبي عند أبي العشائر، وهو مستشعر عظمته، وتفوقه على الشعراء واجه الصعوبات نفسها، وتوجهت إليه أنظار الحقد والحسد والكراهية، إلا أنه لم يسكت كعادته، بل هاجمهم بكل صراحة حين وصفهم بالطمع وحب المال، يقول:

فسرتُ إليكَ في طلــبِ المَعالـــــي   وسارَ سوايَ فــي طلــبِ المعــاشِ[2]   (الوافر)

وأبو العشائر شاعر المجد، والمتنبي شاعر اللفظ، وكلاهما صاحب المعاني الدقيقة. وأبو العشائر ما زال يسمع الأشعار، إلا أن شعر المتنبي أفضل ما سمع، يقول:

شاعرُ المجدِ خدنَهُ شاعرُ اللفـــ   ـظِ كلانَـــا ربُّ المعــــانِي الـــدقاقِ   (الخفيف)
لم تَزَلْ تسمَعُ المـــديحَ ولكــــ   ـــنَّ صهيلَ الجيــادِ غيــرُ النهــاقِ[3]

وليس من شك في أن تعريضه بالشعراء، ثم تصريحه بذمهم في البيت الذي رويناه آنفاً، حين جعل نفسه جواداً، وجعلهم حميراً قد هيّج الشعراء عليه، وأغراهم بالكيد له، فمكروا

---

(1) شلبي، سعد: **مقدمة القصيدة عند أبي تمام والمتنبي**، ص 145.
(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\216.
(3) المصدر نفسه، 2\371.

ولم يقصروا، لكن المتنبي لم يهزم، ولم يفر منهم، وإنما ثبت لهم، وألح في الهجوم عليهم؛ وكان يرى أن هذه المرحلة تحتاج إلى الصمود[1].

فنحن أمام شاعر ثائر، حاد اللسان، شاعر لم يفصل بين كلمته وشخصيته، فشعره توافق تماماً مع ذاته، فاستطاع من خلاله أن يعكس لنا موقفه من الحياة والمجتمع.

وعندما كانت بغداد بيد معز الدولة البويهي، كان وزيره المهلبي يأمل أن يقصده المتنبي أسوة بالكبراء الذين مدحهم، إلا أنّه ترفّع عنه ونفر منه، فنقم الوزير عليه، وحرض عليه شعراء بغداد حتى نالوا منه، وتباروا في هجائه، وتماجنوا، فلم يجبهم، ولم يفكر فيهم، فقيل له في ذلك فقال: "إني فرغت من إجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء" [2].

أرى المتشاعرينَ غرُوا بــذمي ومَـــنْ ذا يحمـــدُ الـــداءَ العضــــالا (الوافر)
ومن يكُ ذا فــمٍ مــرٍّ مــريضٍ يجــدْ مــرّاً بِـــهِ المـــاءَ الـــزُّلالا[3]

فالمتشبهون بالشعراء أولعوا بذم المتنبي، والعيب فيهم وليس به، فهم يجهلون مقداره مثلهم كمثل المريض الذي يجد الماء الزلال مراً من مرارة فمه، فهم يذمونه لنقصهم، ولو صحت حواسهم لعرفوا فضله. واذا أتت المذمة والإساءة من ناقص عقل، فهي دليل على الكمال، يقول:

وإذا أتتــك مــذمّتي مـــن نـــاقصٍ فهي الشهادةُ لِـــي بـــأنيَ كامـــل[4] (الكامل)

---

(1) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 164-165.
(2) نقلاً عن المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ص377.
(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\228.
(4) المصدر نفسه، 3\260.

وهذا الشعور بالتفوق، والعظمة كثيراً ما يظهر المتنبي بمظهر الشجاعة البالغة حد التهور.

ولما كان المتنبي عند "بدر بن عمار"، سافر بدر إلى السواحل؛ ليتسلم ما أضيف إليه من الأقاليم، ولم يصحبه المتنبي في سفره هذا، فانتهز خصومه الشعراء هذه الفرصة، فأغروا به الأمير، وحرضوه عليه، وكأن إغراءهم، وتحريضهم قد أثّر في نفس الأمير، ولهذا نجد المتنبي يمدحه ويعتذر منه حين عاد مصرحا بذكر خصومه الشعراء[1]. الذين وشوا به إلى الأمير رغم أنه لم يذكره إلا بالخير أثناء غيبته، فصار فراقه عقوبة له، فقد لاقى القسوة من الشعراء السفهاء، يقول:

فطنَ الفؤاد لما أتيتُ علـــى النَّـــوَى ولما تركتُ مخافـــة أنْ تفطَنَـــــا (الكامل)

أضحَى فِراقُكَ لـــي عليـــك عقوبـــةً ليسَ الذي قاسيت منـــه هيّنَـــــا

ومكايـــدُ السُّــــفَهاءِ واقعـــةٌ بِهِـــمْ وعداوةُ الشُّعراءِ بِئسَ المقتَنَى[2]

ومعاشرة اللئيم، ومخالطته مذمومة تجر لصاحبها الندامة، وعاقبتها أبداً غير محمودة، وإن رضي بدر بن عمار عن المتنبي حلّت بحاسده المصائب؛ لأنه يتمنى أن يسخط عليه، يقول:

لعِنَتْ مقارنـــةُ اللئـــيمِ فـــإنّـــهـــــا ضيفٌ يَجُـــرُّ مـــن الندامـــةِ ضـــيفَنَا (الكامل)

غَضَبُ الحسودِ إذا لقيتُـــكَ راضِـــيا رُزءٌ أخفُّ علـــيَّ مِـــنْ أَنْ يوزَنَـــا[3]

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 206/3. وانظر حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 133-134.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\205- 206.

(3) المصدر نفسه، 4\207.

فما الذي هاج حساده الشعراء حتى وشوا به عند بدر، وأخذوا يفسدون بينهما؟ أبراعة المتنبي في مدح بدر، حتى إن بدراً قد جّد في إعطاء المتنبي حتى أرضاه، فنشأ عن هذا ما ينشأ عادة في نفوس المقربين من الأمراء وأصحاب السلطان، حتى انتهى بهم الأمر إلى الكيد لهذا الشاعر الطارئ، الذي صرف عنهم الأمير بعض الشيء، وهم حراص على أن يخلو لهم وجهه؟ ليس من شك في أن شيئاً من هذا قد هيج حسد الشعراء على المتنبي، وقد نستطيع أن نضيف إلى هذا ما يلائم طبيعة البيئة العراقية التي انتقلت مع بدر إلى طبرية؛ فقد كانت هذه البيئة ماهرة في الكيد حقاً، تعيش فيه كما يعيش السمك في الماء، وتفسد حياتها إن خرجت من الكيد، أو اضطرت الى شيء من الصراحة و النقاء، وأيسر نظرة وأعجلها في حياة القصر البغدادي تقنعنا بأن الكيد كان قوام الحياة حول الأمراء الذين أقام لديهم قبله وبعده[1] .

إن من نكد الدنيا، وقلة خيرها أن يحتاج الحر إلى إظهار صداقة لعدوه ليأمن شره، ويجتنب مكايده، يقول:

ومن نكدِ الدُّنيا على الحُرِّ أَنْ يَــرَى   عدوّاً لهُ مَا مِــنْ صــداقتِهِ بُــدُّ[2]   (الطويل)

وقيل للمتنبي على من تنبأت؟ قال: على الشعراء: فقيل حقاً لكل نبي معجزة[3] .

إن المتنبي بين الشعراء كالملائكة بين الناس، وشعره سائر في الدنيا سير الشمس، والله تعالى عدل بينه وبين سيف الدولة، فقضى له بالإبداع، وقضى لسيف الدولة بما يختلج فيه من المدح والمجد، يقول:

---

(1) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 135.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\375.

(3) نقلاً عن خفاجي، هادي: **سنوات ضائعة من حياة المتنبي**، ص347.

إن هذا الشعرَ في الشِّــعرِ مَلَــكْ   سارَ فهــوَ الشَّــمسُ والــدّنيا فَلَــكْ   (الرمل)

عَدَلَ الرّحـــــمنُ فيــــهِ بَيْنَنَــــا   فَقَضَى بــاللَّفظِ لــي والحمــدِ لَــكْ

فــإذا مَــــرَّ بــأُذْنَيْ حــاســــدٍ   صَارَ ممَّنْ كــانَ حيّــاً فَهَــــلَكْ[1]

والمتنبي لم يذكر اسم الملائكة عبثاً، بل لأنهم أفضل المخلوقات.

وكلمات المتنبي باهرة من جهة، ومثيرة للسخط من جهة أخرى، ذلك لأن هذا الاعتداد في النفس، وازدراء المتنبي لغيره من الشعراء خليق بأن يملأ الصدور ضغينة وحقداً، وحقاً قد فعل.

قال أثناء مدحه لعبيد الله بن يحيى البحتري:

أحييْت للشعراءِ الشِّــعرَ فامتــدحُوا   جميعَ مَنْ مدحوهُ بالّذي فــــِــيكا[2]   (البسيط)

وأراد بذلك، لقد أحييت للشعراء الشعر، بما أريتهم من دقائق الكرم، وبما علمتهم من غوامض المعاني، حتى استغنوا عن استخراجها بالفكر، فسهل عليهم الشعر، حتى صار كأنه حي بعد أن كان ميتاً، ثم مدحوا الملوك بما فيك من خصال المجد، ومعاني الشرف، وهي لك إلا أنهم انتحلوها لغيرك.

وظل المتنبي يتبارى مع الشعراء دون أن يسبقه أحد، فكان سلاحهم الوحيد هو ذم المتنبي، والإيقاع به عند الأمراء. أما هو فلسانه أمضى من السيف، ولم يستطع أن يغلبه أحد بسماطة كلماته، وإصابة أهدافه، ومن الشعراء الذين ذموه في بغداد ابن سكرة، وابن لنكك، وابن

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\374- 375.

(2) المصدر نفسه، 2\378.

الحجاج، ولا يذكرهم الناس اليوم إلا لماماً، وقد عفى الزمان على أخبار أكثرهم، في حين أنهم يذكرون المتنبي في كل حين وساعة، ولو تسامحنا وقلنا عاش مع المتنبي شعراء كانوا كواكب أيامهم لقلنا طلع المتنبي بينهم شمساً[1].

لقد تمنى المتنبي أن يبقى الشاعر الأول في بلاطات الحكام، كبلاط دمشق وحلب، واللاذقية، وأنطاكية، وطبرية، وبغداد. لكنه أخفق في الوصول إلى ما تمنى، وشعر بالهزيمة، وفرحته لم تكتمل لسبب أو لآخر، من هنا كان الصراع بين ما يريد وما يلاقي، وبين ما يأمل[2].

وتجاوزت أحلام المتنبي أحلام الشعراء الذين اكتفوا من ممدوحيهم بالعطاء المادي، والهبات العينية، وراوده حلمه الطموح في تولي ولاية ما. ولم يصدر هذا الحلم إلا عن إحساسه بالعظمة، وتضخيم الذات، فارتضى أن يتكسب، ولكنه أبى أن يقبل المذلة أمام ممدوحيه، ويكفي موقفه من سيف الدولة حين اشترط عليه أن يمدحه، وهو جالس على غير عادة المادحين من الشعراء في العصور الأدبية المختلفة، وامتد في تصوره مبدأ التكسب، فطلب المال والملك من خلال فنه، فهو أجدر الشعراء بذلك، ولم يترك لممدوحه المدحة كاملة، إذ أصر في معظم قصائده على أن يدخل شريكاً لممدوحه فيها، حتى عرف عنه مبدأ التعالي على بعض ممدوحيه[3].

إذا كان هذا موقف المتنبي من الممدوحين، فكيف كان موقفه من الشعراء إذن؟ إنه لم ير غير نفسه على وجه الأرض، فكان الشاعر وكان العالم والشجاع والكريم، إلى غير ذلك من الصفات النبيلة. وكل هذه الأمور كفيلة بأن تختلق الحزازات بينه وبين غيره من الشعراء.

---

(1) المحاسني، زكي: **نوابغ الفكر العربي (المتنبي)**، ص55-56.

(2) الأيوبي، ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ط1، بيروت: المكتبة العصرية، 2002، ص14.

(3) التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، (د، ط)، القاهرة: مكتبة غريب، (د، ت)، ص108.

وبقيت النفوس الآسنة تكن للمتنبي العداء، وتكيد له، تريد أن تقطع بينه وبين الأمراء، فوصل بهم الأمر إلى اتهام الشاعر بالسرقة من أشعار غيره(1)، والمتنبي وإن كان قد أخذ عن غيره من الشعراء بعض المعاني، إلا أنه كساها جمالاً، وصاغها في أجمل صيغة، وأفاض عليها كثيراً من الروعة، فلذلك ذاعت أشعاره(2).

ووصلت بهم الأمور إلى أن يكتبوا شعر الهجاء، وينسبوه للمتنبي على أنه قاله في إحدى الشخصيات المهمّة، ليختلقوا المشاكل، وليقطعوه عن ذوي النفوذ، وهذا ما حصل مع "الحسين بن إسحاق التنوخي" الذي عاتب المتنبي بعد أن وصله خبر هجاء الشاعر له، فأنكر المتنبي ذلك، ولامه على إطاعة الشعراء الحاسدين، ودعا له أن يكون فداءه، وهم فداء له أي (للمتنبي)، يقول:

تطيــعُ الحاســدينَ وأنــتَ مَــرْءٌ جُعلــتُ فِــداءَهُ وهُــمُ فِــدائي(3) (الوافر)

ومن لا يميز بين كلامهم الساقط، وكلام المتنبي كأنه هجا نفسه، ويسائل المتنبي الحسين قائلاً: من العجب معرفتك بي، وتسويتك بيني وبين غيري من الشعراء الذين هم أقل من الهباء، يقول:

وهاجى نفسَهُ مَــنْ لَــمْ يميِّــزْ كلامِــي مِــنْ كلامِهِــم الهُــرَاءِ (الوافر)

وإنَّ مِنَ العجائِــبِ أَنْ ترانِــي فَتَعــدِلَ بِــي أقــلَّ مِــنَ الهَبَــاءِ(4)

---

(1) عليان، محمد: **المديح في بلاط سيف الدولة الحمداني**، ص93.

(2) العميدي، أبو سعد: **الإبانه عن سرقات المتنبي**، (د، ط)، مصر: دار المعارف، 1961، ص8.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\10-11.

(4) المصدر نفسه، 1\11. الهباء: شيء يلوح مثل الذر في شعاع الشمس.

وبقي المتنبي على هذه الحال طيلة أيام حياته مستهدفاً يتعرض للطعن من الشعراء على الدوام[1]. إلا أن لسانه كان أشد مضاء من ألسنتهم وحدّة، وقد استطاع أن يتحداهم على الرغم من أنهم كانوا يتربصون له في كل مكان.

(1) السامرائي، إبراهيم: **في مجلس أبي الطيب**، ط1، بيروت: دار الجيل، 1993، ص146.

الفصل الثاني

الأخر العربي الممدوح قبل شهرة المتنبي وبعد شهرته

المبحث الأول: الآخر العربي الممدوح قبل شهرة المتنبي

المبحث الثاني: الآخر العربي الممدوح بعد شهرة المتنبي

المبحث الأول

الآخر العربي الممدوح قبل شهرة المتنبي

نشأ المتنبي فقيراً معدماً، كما تقول الروايات، وأجهد نفسه في البحث عن الرزق، محترفاً صنعة الأدب، مصراً على العيش منها. وكان كثيراً ما يكرر في شعره أنه يتوق إلى قوت يومه، وكان دائماً يجدد العزم في طلب الرزق، ويتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن اللقمة حتى ضاق ذرعاً، وملّ من التجوال [1]، يقول:

ضاقَ صدري وطالَ في طلبِ الرّزْ قِ قيامي وقلَّ عنهُ قعودِي (الخفيف)
أبداً أَقْطَعُ البلادَ ونجمِي في نُحوسٍ وهِمَّتي في سُعُودِ[2]

ومن شدة فقره لم يكن يملك ثمناً لجواد يركبه، ويقطع به القفار، ممّا يضطره إلى السير على الأقدام؛ يبيع كرامة شعره في سوق الكساد[3].

ومن ألطف ما قاله في تشبيه نعله بالناقة:

لا ناقَتِي تقبلُ الرّديفَ ولا بالسَّوْطِ يومَ الرّهانِ أُجهِدُها (المنسرح)
شِرَاكُها كُورُها ومشفَرُها زِمامُها والشُّسُوعُ مِقْوَدُها[4]

---

(1) التونخي، محمد: **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس**، ص34.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\320.

(3) التونخي، محمد: **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس**، ص34.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\301−302. الشسوع: الحبل الذي تقاد به الناقة.

فاتخذ المتنبي من شعره وسيلة إلى كسب المال، وهام على وجهه في البلاد يجتدي بشعره، ويمدح كلّ من لاقاه عظم أو حقر. فكان أيام خموله يمدح القريب والبعيد، ويصطاد كما قال الثعالبي "ما بين الكركي والعندليب"، ولكنَّ نزعة الكبر اشتدت فيه بعد شهرته، فأصبح يترفع عن مدح غير الملوك والأمراء، وينظر إلى ما سواه نظر الكبير إلى الصغير (1).

ولبث المتنبي في الشام خمس عشرة سنة دون أن يستقرَّ في بلد. يقصد الممدوحين من العرب، فيخيبون رجاءه، أو يعطونه نزراً، فيثور ثم تضطره الحاجة إلى المدح، وقد مدح في هذه المرحلة اثنين وثلاثين رجلاً بأربع وأربعين قصيدة. وأنبه ممدوحيه في ذلك العهد التنوخيون باللاذقية، وأكثر البلاد نصيباً من مدائحه منبج، وأنطاكية واللاذقية وطبرية (2).

كان المتنبي يرى أن المال سبيل القوة، وأن القوة سبيل المجد، وهو باحث طوال عمره عن المجد، ولهذا فليس له غنى عن قوة المال (3)، يقول:

وأتعبُ خلــقِ الله مَــنْ زادَ همُّــهُ   وقصَّرَ عمَّا تَشتَهي الــنّفسُ وَجْــدُهُ   **(الطويل)**

فلا ينحَلِلْ في المجــدِ مالُــكَ كلُّــه   فينحلَّ مجدٌ كــانَ بالمــالِ عَقــدُهُ

وَدَبِّرْهُ تدبيرَ الَّــذي المجــدُ كَفُــهُ   إذا حارَبَ الأعداءَ والمالُ زَنْــدُهُ(4)

---

(1) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في محاسن أهل الدهر**، ص132. وانظر المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ص340.

(2) عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ص63.

(3) لاشين، كمال: **المتنبي في مصر**، ص17.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\22.

فالمتنبي عرف أهمية المال منذ عقل الحياة حوله، وبحث عن أسباب القوة في عصره على الرغم من أنه لم يجز على مدحه في أيام صباه إلا بالعطاء القليل.

وتمثِّل مرحلة الصبا عند المتنبي مرحلة البدايات الأولى، فهي تقدّم لنا شاعراً يتحسس طريقه من تجارب لم تصل بعد إلى مرحلة التمرس، وإنّما يغلب عليها التصنع، ومحاولة تقليد النماذج الشعرية المألوفة أفكاراً وسبكاً [(1)].

فاللون الأول من حياته هو حياة الشاعر العادي الذي يسلك سبيل أبي تمام والبحتري، وغيرهما من الشعراء المعروفين، وسبيل قوامها طلب الرقي الفني، واتخاذ الفن وسيلة إلى الغنى، وإلى ارتفاع المكانة والاستمتاع باللذات؛ فقد سلك المتنبي هذه السبيل كما سلكها غيره، فقال الشعر في صباه ناسباً وهاجياً ومادحاً؛ قاله للتمرين والتعلّم في أول الأمر، ثم قاله للكسب والارتزاق والتماس الشهرة بعد ذلك [(2)].

إن الآمال التي كانت تترآى أمام هذا الشاعر العربي الطموح، هي الآمال نفسها التي كان يرجوها كل عربي، وليس إلى تحقيقها من سبيل سوى القوة والمال [(3)].

وكان المتنبي غريباً مشرّداً، لا يكاد يستقر في مكان حتى يبعده عنه الخوف والفزع، وهو فقير معدم لا يجد ما يرضي حاجة جسمه إلى الطعام والشراب، فضلاً عما يستعين به على الفراغ الذي يمكّنه من أن يرضي حاجة عقله وقلبه وعواطفه [(4)].

---

(1) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، (د، ط)، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص83.

(2) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص89.

(3) شلبي، سعد: **الشعر العباسي التيار الشعبي**، (د، ط)، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ص100.

(4) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص106.

ولم يسلم الفقر المتنبي إلى الأميّة والجهل، فأفاد من إقامته في حلب، ثم في الفسطاط تجربة وعلماً. وقد أكثر من قراءة الشعر العربي في مختلف عصوره المتقدّمة. واهتم بصورة خاصة بدواوين أبي تمام والبحتري وابن الرومي[1] .

وقد أحسّ عميقاً بضعة نشأته، فما اطمأن إليها، أو ارتضى بها، فإذا هو يقلق ويضطرب، ويحاول التعويض عنها[2]، فاستغل الشعر للتكسب عند قومه الذين لا يقدّرون الشعر، ولا يعرفون له طعماً[3]، انطلق بشعره، فهو يغرده بواكير واعدة، ويقتفي فيه آثار السابقين، وبخاصة عنترة، والبحتري، ويحتاج إلى المال فيمدح أكثر من عربي [4].

وممدوحو المتنبي في هذه الفترة – فترة ما قبل الشهرة – خاملون لا يكادون يذكرون، فالمتنبي كان يمدح الناس جميعهم حتى وإن لم يكونوا مشهورين، رغبة في جمع المال إلى أن اتصل بالقادة والأمراء، فترفّع عن مدح الناس العاديين.

وقد روي عن المتنبي أنّه مدح بالعشرة والخمسة من الدراهم، ولقد قالوا: إن أكثر ما نال بشعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مئة دينار، منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله ابن طغج بالرملة [5].

---

(1) حطيط، كاظم: **أعلام ورواد في الأدب العربي**، ط1، لبنان: الشركة العالمية للكتاب، 1987، ص122.

(2) المصدر نفسه، ص159.

(3) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص106.

(4) حطيط، كاظم: **أعلام ورواد في الأدب العربي**، ص123.

(5) نقلاً عن عبد الجابر، سعود: **الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني**، (د، ط)، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981، ص68.

ومن العرب الذين مدحهم المتنبي قبل الشهرة:

أولاً: علي بن منصور الحاجب:

مدحه بقصيدة تدعى بالدينارية، ويحكى أن علي بن منصور الحاجب لم يعطه على قصيدته التي مطلعها:

بِأَبي الشموسُ الجانحـــاتُ غوارِبـــا   اللابساتِ من الحريـــرِ جَلابِبـــا[1] **(الكامل)**

إلا ديناراً واحداً فسميت بالدينارية [2].

فراح يصوّر لنا كرم الممدوح وشجاعته، فهو إنسان شجاع سنان رمحه يقطر من رقاب الأعداء دماً، وبنان كفه يسكب على العفاة معروفاً فائضاً، وهو يستصغر الشيء العظيم لقاصده، ويظن أن نهر دجلة لا يكفي شارباً واحداً من شدّة كرمه، يقول:

ملـــــكٌ سِـــــنانُ قناتِـــــهِ وبنانُـــــهُ   يتباريـــانِ دمـــاً وعرفـــاً ســـاكِبا **(الكامل)**
يستصغرُ الخَطَـــرَ الكبيـــرَ لوفـــدِهِ   ويظنُّ دجلةَ ليس تكفي شـــارِبا [3]

ولو حدثته بعظيم ما صنعه لكذّبك، ومن الأفضل السؤال عن شدة شجاعته لمن يريد التأكد منها، وعدم مباشرتها خوفاً من الهلاك، فهو من شدة الشجاعة لا يقوى عليه أحد، يقول:

كرمـــاً فلـــو حَدَّثتَـــهُ عـــنْ نفسِـــهِ   بعظيمِ ما صـــنعتَ لظنَّـــكَ كاذِبـــا **(الكامل)**
سَلْ عن شـــجاعتِهِ وزُرْهُ مســـالماً   وحَذارِ ثـــم حـــذارِ منـــهُ محاربـــا

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\122.
(2) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ص132.
(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\125.

فالموتُ تُعرَفُ بالصــفاتِ طباعُــهُ   لم تلــقَ خلقــاً ذاق موتــاً آيبــا[1]

والذي يبحث عن هذا الممدوح يجده بين الغبار والجيش العظيم، فهو لا ينفك عن القتال من شدة شجاعته، يقول:

إن تلقَـــهُ لا تلـــقَ إلا قســـطلاً   أو جحفــلاً أو طاعنــاً أو ضــاربا   **(الكامل)**

أو هاربـــا أو طالبـــاً أو راغبـــا   أو راهبـــاً أو هالكـــاً أو نادبـــا[2]

وإذا نظرت إلى الجبال التي يقاتل فيها تراها مغطاة بالرماح والسيوف، وإذا نظرت إلى السهول تراها مغطاة بالفوارس والمقاتلين. وبريق الحديد في سواد غبار المعركة كأسنان جماعة زنج تبسمت، فبدت أسنانها، يقول:

وإذا نظرتَ إلــى الجبــالِ رأيتَهــا   فوقَ السهولِ عواســلاً وقواضِــبا   **(الكامل)**

وإذا نظرتَ إلى الســهولِ رأيتَهــا   تحتَ الجبــالِ فوارســاً وجنائبــا

وعجاجةً تَــركَ الحديــدُ سَــوادَها   زَنْجــاً تبسَّــمَ أو قــذالاً شــائِبا[3]

إن شعر هذه المرحلة قليل، وبخاصة تلك الأشعار التي قيلت في المدح؛ ذلك لأن الشاعر كان في مرحلة التكوين والإعداد، أو مرحلة التهيؤ، وهي مرحلة يغلب عليها التوتر الحائر، وتسيطر عليها روح التقليد، ومحاولة احتذاء النسق المتعارف [4].

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\126.

(2) المصدر نفسه، 1\126-127.

(3) المصدر نفسه، 1\127.

(4) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح وتطورها الفني**، ص85.

والمتنبي لم يكن يهتم كثيراً بهجاء الناس كذلك؛ لأنه كان يعتقد أنهم أصغر من أن يهجوهم، وأدنى من أن يجرب سيفه فيهم، وربما قصر هجاءه على الملوك والأمراء فيما بعد[1].

ويسترسل في وصف شجاعة علي بن منصور الحاجب، فهو كالأسد يخضع له الأقوياء جميعهم، وهو صاحب رتبة عالية لم ينلها أحد غيره، وسمي علياً لعلوه، والحاجب لأنه حجب الناس عن نيل المنزلة العالية التي استحوذ عليها دون غيره، يقول:

أُسْـــدٌ فرائِسُـــها الأســـودُ يقودُهـــا   أَسَـــدٌ تَصـــيرُ لـــه الأســـودُ ثعالبـــا   **(الكامل)**

في رتبةٍ حَجبَ الورَى عـــن نيلِهـــا   وعـــلا فســـمَّوْهُ علـــيَّ الحاجبـــا[2]

وسمي الممدوح مبذراً لكثرة عطائه لسائله، وسمي غاصباً؛ لأنه يكثر من غصب نفوس أعدائه، يقول:

ودَعُوهُ من فرطِ السَّـــخاءِ مبـــذراً   ودَعُوهُ من غَصْبِ النُّفوسِ الغاصِـــبا[3]   **(الكامل)**

وهو مثل البدر حيثما كان ترى نوره، وكرمه يغمر القريب والبعيد، يقول:

كالبدرِ منْ حيـــثُ التَفَـــتَّ رأيتَـــهُ   يُهـــدِي إلـــى عينيـــكَ نـــوراً ثاقِبـــا   **(الكامل)**

كالبحرِ يقـــذفُ للقريـــبِ جـــواهراً   جـــوداً ويبعـــث للبعيـــدِ ســـحائبا

---

(1) الحديدي، سيد: **المتنبي العبقري الطريد**، ط1، سورية: شعاع للنشر والعلوم، 2006، ص100.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\128.

(3) المصدر السابق، 1\129.

كالشمسِ في كَبِدِ السّماءِ وضَــوْؤها   يَغْشَى الــبلادَ مشــارِقا ومغارِبــا[1]

كان المتنبي معجباً بنفسه حريصاً على أن يعجب الناس بها أيضاً، ورأى في المال وسيلة لبلوغ ذلك، فصار يجوب الأقطار للحصول عليه من خلال المدائح، لكنه بقي حتى اتصاله بسيف الدولة لا ينال من ممدوحه إلا الشيء اليسير، ورأى سني شبابه تطوى على الفقر والفشل، فغلب عليه التذمر، والشكوى من الزمان، ومع ذلك لم ينقطع عن مدح الآخرين[2].

فها هو يواصل مدحه لعلي بن منصور الحاجب الذي يقبّح الكرماء لعجزهم عن بلوغ كرمه، وهذا ما دفعهم إلى معاتبته، فمناقبه أظهرت مناقبهم كالمخازي، يقول:

أَمهجّنَ الكرمــاءِ والمُــزْرِى بِهِــمْ   وتَــرُوكَ كــلَّ كــريمِ قــومٍ عاتِبــا   **(الكامل)**

شــادُوا مَنــاقِبَهُمْ وشِــدْتَ مناقبــا   وُجِــدَت منــاقِبُهُم بهــنَّ مثالبــا [3]

والممدوح له تدبير ذي عقل ورأي مجرب للأمور، مفكّر في العواقب، لكنه إذا هجم في الوغى هجم هجوم الغرّ، ولو طلب أحد العطاء منه؛ لأنفق ماله في البحث عنه، يقول:

تدبيرُ ذي حنــكٍ يفكّــرُ فــي غــدٍ   وهجومُ غِــرٍّ لا يخــافُ عَوَاقبــا   **(الكامل)**

وعطاءُ مــالٍ لــو عَــدَاهُ طالــبٌ   أنفقتَــهُ فــي أَنْ تُلاقــي طالبــا[4]

لقد تحيّر المتنبي في أفعال الممدوح، فلم يعد قادراً على وصفها، واندهش كما يدهش الملك الموكل به لكثرة حسناته، وتميزه عن بني آدم، مما أعجزه عن الكتابة، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\130.

(2) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ص344-345.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\130-131.

(4) المصدر نفسه، 1\132.

فلقد دُهِشْـــتُ لمَّـــا فَعَلْـــتِ ودونَـــهُ ما يدهِشُ الملكَ الحفيظَ الكاتبـــا [1] (الكامل)

من الملاحظ عند قراءتنا لهذه الأبيات، أن الشاعر وصف الممدوح بكثير من الصفات المتداولة كالكرم، والشجاعة، في صياغة يغلب عليها التقريرية. وأنه رغم تكلّفه العناء في صياغة هذه الأبيات لم يتقاض عليها إلا ديناراً واحداً. لا ندري كيف كان يتقبّل ذلك؟ أهي القناعة أم العدم؟ على أية حال سنلاحظ ارتقاء تلك النفس من القليل إلى اللامحدود، فهو لم يعد يرضى إلا بولاية أو حكم فيما بعد، ومن الجدير بالذكر أن سبب تسمية القصيدة بالدينارية جاء من باب السخرية.

ثانياً: محمد بن زريق الطرسوسي:

لقد مدحه المتنبي بقصيدة تدعى بالسينية، حيث بذل فيها الكثير من الجهد، ولم ينل عليها إلا عشرة دراهم، ثم شفع له شافع فنال عشرة دراهم أخرى. ويرى طه حسين أنه حين زاد في الشعر زيد له في العطاء، فقال الأبيات الدالية [2].

فها هو يصف الممدوح بالشجاعة والكرم قائلاً: إن أباه أبقاه لحماية الثغور من بعده، فهو إنسان عظيم كوالده، والثغور تحتاج لمثل هذا الشخص، وهو يهب ويُعطي من قصده، وإذا سار للغزو فارقت جسوم الأعداء رؤوسها، ومن يعادي الممدوح يعادي نفسه؛ لأنه سيعرضها للخطر والموت، يقول:

أبقـــى زريـــقٌ للثّغـــورِ محمـــداً أبقَـــى نفـــيسٌ للنفـــيسِ نفيســـا (الكامل)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\133.

(2) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص75.

إن حـــلَّ فارقــتِ الخـــزائنُ مالَـــهُ   أو سَارَ فارقــتِ الجســـومُ الرُّوسَـــا
مَلْــكٌ إذا عاديـــتَ نفسَـــكَ عـــادِهِ   ورضِيتَ أوحَشَ ما كرهتَ أنيسَـــا[1]

وهو يخوض الشدائد والأهوال في الحروب، وهو مع ذلك جادّ في الأمر، شديد العزم، جيد الطعن في الأعداء، وقد جرّب الشاعر جماعة عباد الله، فلم يرَ أحداً إلا والممدوح فوقه، يقول:

الخائضُ الغَمَـــرَاتِ غيـــرُ مـــدافعٍ   والشـــمَّرِيَّ المِطْعَـــنَ الدِّعيســـا   (الكامل)
كَشَّفتُ جَمهرةَ العِبـــادِ فَلَـــمْ أجِـــد   إلا مســـوداً جَنْبَـــهُ مرؤوسَـــا[2]

ثم يخاطبه قائلاً: أنت الذي صوّرك الله بشراً ينفي الظنون، وأنت تختلف عن الناس جميعهم؛ لما فيك من صفات ليست فيهم، وأنت صاحب رأي سديد، لو استخدمه الإسكندر لأضاءت له الظلمات، يقول:

بشـــرٌ تصـــوَّرَ غايـــةً فـــي آيـــةٍ   تنفـــي الظنـــونَ وتفســـدُ التَّقْييسَـــا   (الكامل)
لو كانَ ذو القـــرنينِ أعمـــلَ رأيَـــهُ   لمَّا أَتَى الظُّلُماتِ صِرْنَ شُموســـا[3]

ويعلق الدكتور طه حسين على هذه الأبيات قائلاً: "إن المتنبي أغرق في المبالغة، وأسرف في تجاوز الحدود الدينية بسبب قرمطيته، وأحسبه حين مدح ابن زريق قد ظن أنه كان يمدح أبا الفضل الكوفي، ذلك الذي جعله في صباه إلهاً يجلّ عن أن يرى في يقظة أو منام"[4].

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\196.
(2) المصدر نفسه، 2\197.
(3) المصدر نفسه، 2\197-198 .
(4) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص77.

ويستأنف مديحه لمحمد بن زريق واصفاً إياه بالجود والعطاء، فلو كان البحر مثل كفه لما انشقّ لموسى، ولو كان ضوء النهار كضوء جبينه؛ لعبدت النار من دون الله تعالى، وصارت كل الطوائف من المجوس، يقول:

أو كَانَ لُـــجُّ البحـــرِ مثـــلَ يمينِـــهِ   ما انشقَّ حتى جـــازَ فيـــهِ موســـى   (الكامل)

أو كـــانَ للنيـــرانِ ضَـــوْءُ جبينِـــهِ   عُبِدَتْ فَصَار العالمونَ مَجوسَـــا[1]

وهو يقوم مقام الجيش العظيم من شدّة شجاعته، والمتنبي طلب منه الإعانة على الأعداء، فقتلهم وتلطخ سيفه بالدماء، يقول:

لمَّا ســـمعتُ بِـــهِ ســـمعتُ بواحـــدٍ   ورأيتُـــهُ فرأيـــتُ منـــهُ خميسَـــا   (الكامل)

ولحظـــتُ أنملَـــهُ فسِـــلْنَ مواهبـــا   ولمستُ منصُـــلَهُ فَســـالَ نفوسَـــا[2]

والمتنبي أفرط في المبالغة ممّا دفع الدكتور طه حسين إلى القول: "المبالغة حسنة في الشعر بشرط أن تكون معقولة يسيغها الذوق، فإذا تجاوزت هذا الحد كانت سخفاً أو هجاء، وكان من حق الممدوح أن يظن أن مادحه يسخر منه ويستهزئ به، ولكن محمد بن زريق كان لحسن حظ المتنبي أجهل من هذا كله" [3].

والجميع يستغيث بمحمد بن زريق، وبخاصة إذا أصابتهم بلوى من الدهر وصروفه، فهو يحميهم من جور الزمان. وإذا ذكر أحدهم اسمه هرب الشيطان خوفاً منه؛ لأن اسمه محمد وهو اسم النبي –صلى الله عليه وسلم–، والشيطان يطرد بذكره وبذكر الله.

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\198-199.

(2) المصدر نفسه، 2\199. الخميس: الجيش العظيم.

(3) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص77.

والذي يصف الممدوح بالكرم والشجاعة يقصر؛ لأنّ الممدوح أعظم من هذه الصفات رغم تحليه بها، وآثار الممدوح ظاهرة؛ فالذي في العراق يسمع به، ويراه من في طرسوس، يقول:

يا من نلــوذُ مِــنَ الزَّمــانِ بِظلِّــهِ حَقــا ونطـــرُدُ باســـمِهِ إبليسَــا **(الكامل)**

صَدَقَ المخبِّرُ عنك دونكَ وَصْــفُهُ مَن بالعراقِ يراكَ في طَرْسُوســا[1]

وهو يقيم ببلده كإقامة الأسد في عرينه، وإذا أراد الغزو فارق بلده كالأسد لطلب الفريسة، يقول:

فـــإذا طلبـــتَ فريســـةً فارقْتَـــهُ وإذا خَـــدرْتَ تَخذتَـــهُ عريســـا[2] **(الكامل)**

ولو كانت الدنيا ذات جود وكرم لفدته بأهلها، وأبقته خالداً، ولو كانت غازية مجاهدة لكتبت عليه وقفاً محبوسا، وكانت لا تغزو إلا له، يقول:

لو جــادَتِ الــدُّنيا فــدتكَ بأهلِهــا أو جاهَدَتْ كُتِبَتْ عليــكَ حَبيســا[3] **(الكامل)**

ومن الجدير بالذكر أن الممدوح كان صاحب غزوات؛ لأنه كان على الثغور في وجه الروم.

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\200.

(2) المصدر نفسه، 2\200.

(3) المصدر نفسه، 2\202.

وتكشف مدائح المتنبي التي قالها في هذه الفترة عن مرحلة بحث قلقة، يُطَارد فيها الشاعر غايات لها رصيدها في ذاته، وقد جعلته هذه الغايات يتخبط بين هذا العدد الكبير من الممدوحين، كما جعلت من مدائحه مسرحاً للحديث عن نفسه وغاياته وذم الزمن وأهله(1).

وقد كان واضحاً أن المتنبي يكثر من وصف الممدوح بالشجاعة والكرم، وهذا يتكرر في قصيدته الدالية، فهو يعطي قبل أن يسأل، والمتنبي قصده قبل نفاذ زاده، فأعطاه ولم يبخل، بل القليل من عطائه يكفي ويزيد، فهو كالوابل الذي يغرق بالخير، يقول:

محمدُ بن زُريقٍ مــا نَــرى أحــداً إذا فقدْناكَ يُعطــي قبــلَ أن يَعِــدَا (الكامل)

وقد قصـــدتُكَ والتَّرحـــالُ مقتــربٌ والدارُ شاسعةٌ والــزادُ قَــدْ نَفِــذا

فَخلِّ كفَّــكَ تَهْمِــى واثْــنِ وابِلَهــا إذا اكتفيــتُ وإلا أغــرقِ البَلَــدَا(2)

لقد رأينا كيف أن المتنبي كان ينظم لأكثر من جهة من المستمعين وهو صبي، وكان يبذل مجهوداً كبيراً ويتقاضى القليل (3).

أمّا الطبقات الضعيفة الخاملة، فقد طمعت في أن ترقى درجة أو درجات، وظفرت من ذلك بكثير، ولكنّ الطمع الإنساني لا حدّ له، والطموح إلى الكمال لا يقف، والأمور الاجتماعية لا تطرد على هذا النحو السهل، فكل طمع في أي طبقة من الطبقات يصده طمع مثله، وكل طموح يقاومه طموح مثله، وكل ظفر ينتهي إليه فرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات، إنما هو انتصار على فرد آخر، أو ظهور على طبقة أخرى، فالمتنبي إن أرضى قوماً يسخط آخرين

---

(1) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح وتطورها الفني**، ص90.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\348. الوابل: أشد المطر، وتهمى: تدفق.

(3) العريض، إبراهيم: **فن المتنبي بعد ألف عام**، ط2، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1973، ص293.

لتصبح الحياة حرباً متصلةً وصراعاً مستمراً، وطموحاً لا ينقضي، وآمالاً لا تحد، وجشعاً لا يرضي [1].

ثالثاً: علي بن إبراهيم التنوخي:

ربما أدرك المتنبي في قرارة نفسه، أن صفتي الكرم والشجاعة من أكثر الصفات التي ترضي الممدوح في ذلك الوقت، وهو حريص كلّ الحرص على أن يكسب الممدوح بكل الوسائل؛ فكرم "علي" أغرق المتنبي إلى حدّ جعله يحتار في رد الجميل، فهو يريد أن يجازيه على كرمه هذا، وقد قطع المتنبي المسافات الطويلة حتى وصل إليه، ممّا أذهب لحم ناقته من شدة التعب، حتى إنه لم يتبق بها دم يقوت القراد، يقول:

أأرضَى أن أعيشَ ولا أُكافى ... على ما لِلأَميرِ مِنَ الأيادِي (الوافر)

جَزَى اللهُ المسيرَ إليهِ خيراً ... وإن تركَ المطايا كالمَزَادِ

فلم تلقَ ابنَ إبراهيمَ عَنْسِي ... وفيها قوتُ يومٍ للقرَادِ[2]

ثم يقول جزى الله المسير خيراً؛ لأنّه قرب ما بينه وبين الممدوح حتى صارت المسافة بينهما كعرض حمائل السيف:

ألم يكُ بيننَا بلدٌ بعيدٌ ... فصيَّرَ طولَهُ عرضَ النِّجادِ (الوافر)

وأبعَدَ بعدَنا بُعْدَ التَّدَانِي ... وقرَّبَ قربَنَا قربَ البعادِ[3]

---

(1) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص29.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\357.

(3) المصدر نفسه، 1\358.

والممدوح رفع من قدر المتنبي، وأدناه إلى مجلسه حتى نال محلاً رفيعاً، فكأنه أجلسه فوق السموات السبع لشرف مجلسه، والممدوح استبشر برؤيته قبل سلامه عليه، يقول:

فلمَّـــا جئتُـــهُ أعلـــى مَحِلِّـــي وأجلَسَـــنِي علـــى الســـبعِ الشِّـــدادِ (الوافر)

تهلَّـــلَ قبـــلَ تســـلِيمي عليـــهِ وألقَـــى مالَـــهُ قبـــلَ الوســـادِ[1]

وكان المتنبي في هذا العهد يلهج بالمجد والسؤدد، ويذكر أن له مطالب جساماً، ويرى في نفسه أنّه أحق بالسؤدد ممن سادوا [2].

والمتنبي كان مطبوعاً على غرار رجال المطامع، وكان في خلقه وتفكيره استعداد عظام الأعمال، ولكن بغير أداة العظمة، فخرجت عظمته في عالم الفنون، ولم تخرج في عالم الحوادث، وأظهر مظاهر شعوره بالعظمة في سمات شعره من المبالغة في التهويل والتضخيم[3].

وهبات الممدوح تصل إلى البشر كلّهم، إلا أنها لا تجود على أحد باسم الجواد؛ لأنه لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو يعتقد بسخائه اعتقاد الدين، ويخاف إذا غيّر طبعه هذا من دخول النار، يقول:

وأنَّـــكَ لا تجـــودُ علـــى جـــوادٍ هباتُـــــكَ أَنْ يُلقَّـــــبَ بـــــالجواد (الوافر)

كـــأن ســـخاءَكَ الإســـلامُ تخشَـــى إذا مـــا حُلْـــتَ عاقِبـــةَ ارتـــدادِ[4]

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\358.

(2) عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ص66.

(3) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص187.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\359.

وأسنته لا تقع إلا في قلوب الأعداء، كأنها الهموم؛ لأن محلها القلوب، والممدوح جبل خيله للقتال، فاستطاع بذلك الظفر من الأعداء، يقول:

وقد صُغْتَ الأسنَّةَ من همومٍ فما يخطرْنَ إلا في فؤادِ (الوافر)
ويومَ جَلبتَها شُعْثَ النَّواصي معقدَةَ السبائِبِ للطرادِ [1]

هذه عبقرية المتنبي تظهر في سرعة البديهة، وما لديه من رصيد وافر من أسرار اللغة، ومن عبقرية المتنبي أنه يقول البيت من الشعر، فتسمعه وتطرب لنظمه، وتستمتع بمعناه، وتنتشي بموسيقاه وحدسه على كثرة مبالغاته [2].

ومن مبالغاته هذه أن عدو الممدوح يراه في المنام، وقد طعن كليتيه برمحه، فيخاف أن يرى ذلك وهو مستيقظ، يقول:

يرى في النّومِ رُمحَكَ في كُلاهُ وَيخْشَى أن يراهُ فِي السُّهادِ[3] (الوافر)

والمتنبي لطالما مدح أناساً، ولم يجز على مدحهم بشيء، وهو في الحقيقة لم يكن يمدحهم بل يمدح علي بن إبراهيم التنوخي، يقول:

أشرتَ أبا الحسينِ بمدحِ قومٍ نَزَلتُ بهم فسرتُ بغيرِ زاد (الوافر)
وَظنّوني مدحتُهُمُ قديماً وأنتَ بما مدحتُهُمُ مُرادي[4]

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\360-361.
(2) الحديدي، سيد: **المتنبي العبقري الطريد**، ص46.
(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\364.
(4) المصدر نفسه، 1\364 + 365.

والممدوح كثير الغارات، وسراياه مبثوثة في الآفاق، وإذا ذكر اسمه للطفل شاب، وهو يخفي مكره، ويظهر أنه خاشع، يقول:

بعيــدُ الصّــيتِ منبــثُّ السَّــرايا   يُشَــيِّبُ ذِكــرُهُ الطِّفــلَ الرضــيعا (الوافر)

يَغُضُّ الطّرفَ مــن مكــرٍ ودهــيٍ   كأن بهِ – وليس بــهِ– خُشُــوعا[1]

وإن سألته عن ماله كفاك، كالمذيع إن سألته عن سرّ أفشاه، وهو كذلك يعطيك ولا يبخل، يقول:

إذا اســتعطيتَهُ مــا فــي يَدَيْــهِ   فقد ســألتَ عــن ســرٍّ مــذيعا [2] (الوافر)

من الواضح عند قراءتنا لهذه الأبيات أن الشاعر يريد أن يستجدي المال من الممدوح بأسلوب يشدّ الممدوح إليه، فهو شاعر محنّك يعرف ماذا يريد، ويعرف الطريق التي تصله بالممدوح.

كان المتنبي بين الشعراء عالماً متميزاً ببدايته ونهايته، بطفولته وصباه وكهولته، بخَلْقه وخُلُقه، بثقافته وشعره، بذكائه وطموحه [3].

ويستأنف مدحه لعلي التنوخي، فشجاعته ليس لها حد، ولا يمنع أحداً من مبارزته، ولكن يمنعه من الرجوع سالماً، ورمحه إذا طعن به أحداً اعوج والتوى من شدّة بسالته، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\253.

(2) المصدر نفسه، 2\253.

(3) سالم، وجيه: **في رحاب أبي الطيب**، (د، ط)، مركز يافا للنشر والتوزيع، 2006، ص120.

عليّ لـيسَ يمنـعُ مِـنْ مجـيءٍ		مبـارِزَهُ ويمنعُـهُ الرّجوعـا (الوافر)

علـيّ قاتـلُ البطـلِ المفـدَّى		ومبدِلُـهُ مِـنَ الـزَّرَدِ النَّجيعـا

إذا اعـوجَّ القَنـا فـي حامِلِيـهِ		وَجازَ إلى ضُلُوعِهِمُ الضُّلُوعا[1]

وإن صرت جريئاً ونظرت إليه في الحرب، فقد قدرت على شيء عظيم لم يقدر عليه أحد، مع أن الذي يلاقيه يخرّ صريعاً، يقول:

إن اسـتجرْأتَ ترمُقُـهُ بعيـداً		فأنتَ استطعتَ شيئاً مـا اسـتُطِيعا (الوافر)

وإن مـاريتَني فاركـبْ حِصَـانا		وَمَثِّلْـهُ تخِـرَّ لَـهُ صَـرِيعاً[2]

وهو غمام ندي، ولكن الغمام ربما تكون فيه صواعق مهلكة، وأحجار برد، يقول:

غمـامٌ رُبَّمَـا مَطَـرَ انْتِقامـا		فَـأَقْحَطَ وَدْقُـهُ البلـدَ المَرِيعـا[3] (الوافر)

وهو في عطائه أسرع من المتنبي في الأخذ، وهو بإحسانه هذا استطاع أن ينسيه والدته وبلده، يقول:

وجاوَدنِي بـأنْ يُعطـي وأحْـوى		فـأغرقَ نيلُـهُ أخـذِي سـريعا (الوافر)

أَمُنْسِـيَّ الكنـاسَ وحضـرمَوْتَا		ووالـدتي وكنـدةَ والسَّـبيعا[4]

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\255.

(2) المصدر نفسه، 2\255-256.

(3) المصدر نفسه، 2\256.

(4) المصدر نفسه، 2\257.

لقد حاول المتنبي الارتقاء عن طريق فنه هذا بالرغم من أنه كان يرضى بالقليل، لكن الصبر ضروري في بعض الأحيان، ومن الممكن اعتبار هذه الفترة فترة انتظار ليس إلا، وبخاصة أن المتنبي لا ينتمي إلى بيئة غنية، فلولا موهبته الشعرية هذه، ما استطاع أن يرتقي سلّم الغنى، ولا أن يظفر بتلك المنزلة بين الملوك والطبقات دون منازع، ولا مدافع فيما بعد.

فوالده كان سقاء بالكوفة انتقل به إلى الشام، ونشأ ولده فيها على الفقر وسوء الحال(1).

ولننظر إلى أبياته التي تلفت انتباه القارئ، وتشعره بشدّة هيبة الممدوح، حتّى إنه يكاد يهابه دون أن يراه، فعلي وإن كان أعزل من غير سلاح، فإن لحاظه تقوم مقام سلاحه، ولو اتبع ذهنه بدلاً من حسامه؛ لقطّع المغافر التي على الرؤوس، والدروع التي على الأجسام، يقول:

فـــلا عَــزَلٌ وأنـــتَ بـــلا ســـلاحٍ   لحاظُـــكَ مـــا تكـــونُ بـــه مَنيعـــا   (الوافر)

لو اســـتبدلْتَ ذِهنَــكَ مـــن حســـامٍ   قَدَدتَ بـــهِ المغـــافرَ والـــدُّرُوعا(2)

وقد علت همته، فهو لا يقنع بمرتبة واحدة، واستطاع بجوده أن ينسي الجميع اسم الجواد الذي استحوذ عليه وحده، فلا جود إلا جوده، يقول:

ســـموتَ بِهِمَّـــةٍ تســـمُو فتســـمُو   فمـــا تُلفَـــى بمرتبـــةٍ قَنوعـــا   (الوافر)

وَهَبْــكَ سَــمَحْتَ حتـــى لا جـــوادٌ   فكيفَ علـــوتَ حتـــى لا رَفيعَـــا(3)

---

(1) ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، (د، ط)، بيروت: دار الثقافة، (د، ت)، 124\1.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 258\2. المغافر: جمع مِغفر، وهو ما يكون على رأس الفارس من حديد.

(3) المصدر نفسه، 258\2.

إن رغبة المتنبي في تحقيق أهدافه، والألم الذي يعانيه من أجل ذلك، هما اللذان خلقا عنده روح الإبداع فيما بعد، ولو بلغ ما تمنى لنضب نبوغه الشعري، ولكان من هؤلاء الشعراء العاديين، أو غدا أميراً صغيراً قد لا يذكر بسطر من سطور التاريخ [1].

ولا شك أن المتنبي لقي الكثير من العنت والعنف في حياته حتى وصل إلى الشهرة، والشقاء أبداً لن يدوم مع هذه النفس الطموح، ولكن لا بد من الصبر كما، يقول:

وإذا كانـــــتِ النفـــــوسُ كبـــــاراً تعبــتْ فـــي مرادِهـــا الأجســـامُ[2] **(الخفيف)**

رابعاً: محمد بن عبيد الله العلوي:

وممّا قاله في مدحه قصيدة مطلعها:

أهـــــلاً بـــــدارٍ سَـــباكَ أغْيَـــدُها أبعَدَ مـــا بـــانَ عَنْـــكَ خُرَّدُهَـــا[3] **(المنسرح)**

وهي تشتمل على المعاني المألوفة في الغزل والوصف والمديح، والمدح فيها هو مدح تقليدي لا يتجاوز الشاعر به أن يصف الممدوح بأنه أكرم قريش، وأشجعها وأعظمها حظاً من الخصال التي يمتاز بها الرجال، وبأنه أحلم قريش وأحكمها إلى غير هذا من الأوصاف التي تعوّد الشعراء أن يرصوها في مدحهم رصّا [4].

---

(1) التونخي، محمد: **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس**، ص53.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\345.

(3) المصدر نفسه، 1\294.

(4) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص52-53. وانظر عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص84.

فقد مدحه ذاكراً نعمه عليه التي لا تعد ولا تحصى، فهو يعطي ولا يماطل، ولا يمنّ بما يعطي، يقول:

لَـــــهُ أيـــــادٍ إلــــيَّ ســــابقةٌ أُعَـــــدُّ منهـــــا ولا أعــــدّدُها (المنسرح)
يعطـــي فَـــلا مَطْلُـــهُ يكـــدّرُها بِهـــا وَلا مَنُّـــهُ ينكّـــدُها[1]

كما أنه أشرف قريش، فأبوه خير قريش؛ لأنه ابن رسول الله –صلى الله عليه وسلّم–، وهو أطعن قريش وأضربها وسيّدها، يقول:

خيـــرُ قـــريشٍ أبـــاً وأمجـــدُها أكثرُهـــــا نـــــائلاً وأجوَدُهـــــا (المنسرح)
أطعَنُهـــــا بالقَنـــــاةِ أضــــرَبُها بالســـيفِ جَحْجَاحُهـــا مُسَـــودها[2]

وهو أفرس قريش إذا ركب فرسه، وأكرمهم وأكثرهم غارة. وهو تاجهم وزينتهم:

أفرسُـــــها فارســـــاً وأطولُهـــــا باعـــــاً ومغوارُهـــــا وســــيّدُهَا (المنسرح)
تـــاجُ لـــؤيّ بـــن غالـــبٍ وَبِـــهِ سَـــمَا لَهَـــا فرعُهـــا ومحتِـــدُها[3]

وقد اتهم المتنبي بالبخل والذلّ من أجل الحصول على المال، وقد اتخذ حساده من هاتين الصفتين ذريعة إلى الحط من شأنه، واستندوا في ذلك على بعض الروايات والأخبار واللقطات من حياته، وقالوا إنه أهان نفسه، وبالغ في المدح في سبيل جمع المال [4].

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\304.

(2) المصدر نفسه، 1\305.

(3) المصدر نفسه، 1\306. لؤي بن غالب: أبو قريش.

(4) التونخي، محمد: **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس**، ص27–28.

وها هو يستأنف مدحه لمحمد بن عبيد الله العلوي، فهو في قريش كالشمس في النهار، وكالقمر في الليل، والدُرّ والزبرجد في القلادة، يقول:

شـــمسُ ضُــحاها هــلالُ ليلَتِهـــا دُرٌّ تَقاصِـــــيرِها زَبَرْجَـــــدُها[1] (المنسرح)

وجميع الخلائق أجمعت على أنه أوحدهم فضلاً ونسباً وشجاعة وكرماً، يقول:

قـــد أجمعـــتْ الخليقـــةُ لـــي أنـــكَ يـــابنَ النبـــيّ أوحـــدُها[2] (المنسرح)

وشعر المتنبي في هذه الفترة لم يكد يرقى إلا قليلاً؛ فقد استوثق المتنبي من صناعته بعض الشيء لكثرة المرانة، واستطاع أن يذلّ الألفاظ، وإن عجز عن أن يستذل المعاني، وهو لم يضف إلى فنه شيئاً أو لوناً لم يسبقه إليه أحد من الشعراء الذين تقدموه، إنما كان شاعراً مقلداً ينهج نهج المتقدمين، وبخاصة أبو تمام بالرغم من أنه فاق الجميع فيما بعد [3].

ومن عادة المتنبي طلب العطاء من الممدوح تلميحاً أو تصريحاً، ونعم الممدوح غمرته من كثرتها، ولن تنتسى على طول العهد، ولكن حبذا لو تكررت العطية التي طلبها علنا من ممدوحه، قائلاً:

فكَـــمْ وكَـــمْ نعمـــةٍ مجللـــةٍ ربّيتهَـــا كـــان منـــكَ مولـــدُها (المنسرح)

ومكرماتٍ مَشَتْ علىَّ قـدمِ البـــ ـــــر إلـــى منزِلـــي تردِّدُهـــا

أَقَـــرَّ جِلـــدي بِهـــا علـــيَّ فـــلا أقـــدِرُ حَتّـــى الممـــاتِ أجحَـــدُها

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\306.

(2) المصدر نفسه، 1\310.

(3) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص112.

فَعُـــدْ بِهَـــا لا عَـــدِمْتُها أبـــداً   خيرُ صِــلاتِ الكــريمِ أعَوَدُهــا[1]

كانت تلك القصائد نماذج عرضنا من خلالها صورة العربي الممدوح قبل شهرة المتنبي، ورأينا كيف أن المتنبي وصف ممدوحيه بالصفات نفسها تقريباً، ألا وهي الكرم والشجاعة.

وقد توضّح كيف كانت حياة المتنبي قلقة متوترة، وكيف سارت قصيدته الشعرية متابعة لذلك القلق وهذا الاضطراب، وإلى أي حدّ توافرت هذه المظاهر في المضمون الشعري لقصيدة المديح في مراحلها التي تلازمت مع مراحل رحلة حياة المتنبي، فكانت قلقة حائرة في فترة الصبا، وسنرى كيف ستكون تزواجاً بين المثل والذات في مرحلة السيفيات [2].

وكان واضحاً أن المتنبي ضحى بالغالي والنفيس من أجل الحصول على المال، وقطع المسافات الطويلة محاولاً إرضاء الممدوح لأجل هذا.

والمتنبي جهل نفسه، ولم يكن صادق النظر في أمله، فأضله الأمل الكاذب، وأحسّ من نفسه السمو والنبالة، وظن أن السموّ لا يكون إلا بين المواكب، وأن النبالة لا تصح إلا لذي تاج وصولجان، وعرش وإيوان فيما بعد، وسيف يضرب الأعناق، ورمح يرتوي بالدماء، وهكذا كان الحال في عصره، وكان هذا مقياس المجد الذي لا مقياس غيره، فطلب الرجل المال جاداً في طلبه، وجعل الشعر آلته ريثما يبلغه، فبقيت الآلة الموقوتة، وذهبت الغاية المطلوبة[3] .

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\311-312.

(2) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح وتطورها الفني**، ص145.

(3) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص184.

المبحث الثاني

الآخر العربي الممدوح بعد شهرة المتنبي

لقد بقي المتنبي يتقلّب في جنبات البلاد لحين اتصاله بسيف الدولة الحمداني، وقد صحبه تسع سنين، وقال فيه ما يقارب ثلث شعره، ونظراً لحضور الأمير سيف الدولة الحمداني الصارخ في الديوان، فقد قرّرت أن أقصر هذا المبحث على هذه الشخصية.

وليس من الإسراف أن يُقال إن للمتنبي في سيف الدولة ديواناً خاصاً يمكن أن يستقلّ بنفسه، وهو وإن جمع في سفر مستقل، لم يكن من أجمل شعر المتنبي وأروعه وأحقه بالبقاء، بل من أجمل الشعر العربي كله وأروعه، وأحقه بالبقاء [(1)].

وقد اتصل المتنبي بسيف الدولة عن طريق أبي العشائر بن حمدان، الذي كان والياً على أنطاكية من قبل سيف الدولة، فعندما قدم الأمير سيف الدولة إلى أنطاكية قدّم أبو العشائر إليه أبا الطيب المتنبي وأثنى عليه، وعرّفه منزلته من الشعر والأدب [(2)].

ولمّا اتصل المتنبي بسيف الدولة أخذت الدنيا تبتسم له، ونال عند ممدوحه ما كان يصبو إليه من كرامة ومال وجاه، فطابت نفسه وقصر شعره على ذلك الأمير العربي. وبإقبال الدنيا عليه لم يخمد في نفسه ذلك الكبر الذي طبع عليه [(3)].

وجد المتنبي في علي بن حمدان الأمير العربي الذي ينشده، ورأى سيف الدولة في أحمد ابن الحسين فتى أبياً أهلاً للصداقة، وشاعراً مجيداً جديراً بتخليد مآثره، وكان لا بد لأخلاق سيف

---

(1) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص169.

(2) عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ص83.

(3) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ص345.

الدولة من شاعر كالمتنبي يشيد بها ويسجل مفاخرها، وقد أراد الله سبحانه لهما هذه الصحبة، إذ ولدا في سنة واحدة، ولم يعش سيف الدولة بعد مقتل المتنبي إلا سنتين. لقد كانا بطلين يتعاونان بل شاعرين يتباريان [1].

كان المتنبي حين فرض سيف الدولة إمارته على حلب في العقد الثالث من عمره، حيث تتفتح آمال الشباب وأحلامهم، وكان قد مرّ بألوان مريرة من بؤس الحياة وشظف العيش، ذاق الفقر والهوان، فناضل وكافح إلى أن وصل إلى أعلى المراتب[2]. لقد رأى في بلاط سيف الدولة حياة تختلف عمّا ألفه من حياته السابقة بذخاً وثراء، وأدباً وفنا، وفروسية ومجداً، ورأى في سيف الدولة رجلاً يختلف عمّن خبرهم من الرجال، ورأى إلى جانب هذا نزعات قومية تضطرم اضطراماً، وحياة فكرية تموج بالقوة والازدهار. هذه الظواهر مجتمعة قد فتحت أمام عينيه آفاقاً جديدة نقلته من حال إلى حال[3]؛ من حياة القلق والضجر حيث بدأ المتنبي قلقاً متوتراً كما لاحظنا، واستمر معه هذا القلق والتوتر في مرحلة الصبا، وبعض مرحلة الشباب التي قضاها متنقلاً بين الكوفة والبادية وأمصار الشام، وتوسل فيها بالشعر إلى العديد من الممدوحين متنقلاً بينهم في حيرة تكشف عن المعاناة التي كان يعانيها، وهو يبحث عن المال والرفعة، إلى حياة الرغد والاطمئنان [4].

وجد المتنبي عند سيف الدولة راحة من الجهد، وفراغاً للجد من الأمر وصادف بيئة خصبة مثقفة ذكية ناقدة، وأميراً ليس أقل من هذه البيئة خصباً وذكاء وثقافة وميلاً إلى النقد. فلم

---

(1) عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ص84.

(2) الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، ص137.

(3) المصدر نفسه، ص138.

(4) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح وتطورها الفني**، ص93.

يكن له بد من أن يلائم بين نفسه وبين هذه البيئة، ومن أن يجعل نفسه خليقاً بصحبة هذا الأمير [1].

إن المتنبي لقي خلال السنوات التي قضاها في حلب المجد والغنى وهناءة العيش، ولقي إلى جانب هذا الكيد والدس، وعرف خصائص النفس البشرية على ألوانها المتباينة[2]. مما جعله يشعر بأن هناك هوة بين ذاته الشاعرة والآخر، وبأنه وحيد في بعض الأحيان والآخر جدار في وجهه [3].

دخل المتنبي عاصمة الحمدانيين، وبه بعض الهيبة والذعر؛ لأن بلاط سيف الدولة كان يعج بأكابر العلماء والأدباء والشعراء، من الفارابي الفيلسوف إلى ابن خالويه، إلى ابن جني إلى أبي ذر الصنوبري، إلى كثير من الشعراء والقضاة والفنانين. إلا أن وثوق المتنبي من نفسه، وطمعه بالمجد والشهرة، ونزعته العربية الصميمة هي التي جعلته يقتحم هذا الميدان، وأن لا يعد نفسه غريباً [4].

وقد ابتسمت الدنيا بملء ما فيها للمتنبي عند التقائه بسيف الدولة. وقد أعده الأمير سيف الدولة لحياة الطعان والعراك التي هو أهل لها، ومنذ اتصاله به استلمه الرواض، فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة، وأصبح المتنبي الشاعر ابن الطعن والعراك [5].

---

(1) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص84-85.
(2) الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، ص140.
(3) أدونيس، أحمد: **مقدمة للشعر العربي**، ص38.
(4) الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، ص137.
(5) المصدر نفسه، ص138.

واشتهر المتنبي لدرجة أنه أصبح يستهين بخصومه وكل من حوله من الناس، وصار بمقدوره الآن أن يرفض مدح الوزراء، ويقصر مديحه على الملوك والأمراء فقط [1].

فأصبح المتنبي شاعر البلاط الحمداني الأول وقد انقطع لسيف الدولة، فلم يمدح أثناء إقامته لديه أحداً سواه، وقد امتاز شعره فيه بالتنوع، فضلاً عن الكثرة [2].

وكان الأمير سيف الدولة الأديب يتعصّب للمتنبي، ويضعه في مكانه اللائق من الذروة بين بقية شعرائه الآخرين، الذين كانوا جميعاً في مرتبة سامية من الإبداع؛ ربّما لأنه أقدر منهم جميعاً في فن المديح الذي كان يطرب له كل الطرب [3].

فلم يكن رقي شعر المتنبي في هذا الطور شيئاً مفاجئاً، ولا أثراً من آثار المصادفة، وإنما كان شيئاً طبيعياً، ونتيجة لازمة لهذه الحياة الجديدة التي انغمس فيها [4].

والمتنبي حينما اتصل بسيف الدولة وحط رحاله عنده، وجد فيه ضالته المنشودة، ووجد فيه مثله الذي يسعى إليه، ورأى فيه طموحه، كما وجد فيه حريته وانعتاقه، والتقى عنده مع ذاته لأول مرة، بعد أن تعرض للتغرب والسجن. وهكذا كانت علاقة المتنبي بسيف الدولة علاقة تواصل وتوحد، تنازل فيها الشاعر عن تقديم نفسه على ممدوحه [5].

---

(1) الحديدي، سيد: **المتنبي العبقري الطريد**، ص81.

(2) عليان، محمد: **المديح في بلاط سيف الدولة الحمداني**، ص91.

(3) الشكعة، مصطفى: **سيف الدولة الحمداني أو مملكة سيف الدولة ودولة الأقلام**، (د، ط)، بيروت: عالم الكتب، (د، ت)، ص191.

(4) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص184.

(5) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح وتطورها الفني**، ص94.

وبخاصة أن المتنبي قد نشأ في جو يفتقد جوهر الذات العربية التي يحرص عليها فارس مثله يحمل نفساً ثائرة، تتطلع إلى التعالي، وتصبو إلى تحقيق ما يتطلع إليه، من أجل هذا وضع المتنبي نصب عينيه أن يكون شعره غناء بهذه الذات المفتقدة؛ نظراً لأهميتها، وحثاً على استنهاضها [1].

لقد أكبر المتنبي في سيف الدولة الفكرة العربية، والطموح، والفروسية، وطلب المجد، وهي صفات مغروسة في المتنبي، ممّا وحّد بين نفسيتهما، وقرّب بين روحيهما، وواءم بين نزعاتهما[2]، فأصبح المتنبي الصديق الحميم لسيف الدولة، وقد ألف أن يتخذ كبار الممدوحين أصدقاء له لا سادة [3].

اندفع المتنبي إلى تمثل الذات العربية في معظم أشعاره، وكان سيف الدولة آنذاك هو الأمل الذي تتطلع إليه كل النفوس التي تستهدف الذات العربية، فقد كان مجاهداً يدافع عن الإسلام، ويحمي ثغور المسلمين من قبل الروم [4].

إن سيف الدولة كان يختلف عن غيره من أمراء الإسلام؛ بل يمتاز عنهم بمفاخر كثيرة بفروسيته، وبتذوقه الرفيع للأدب، وبروحه الكبيرة التي كانت تحلم بالسيطرة، وتأسيس مملكة عربية مترامية الأطراف، بإيقاد نيران الفتح في صدور فتيان العرب بغزواته، وحروبه التي

---

(1) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح وتطورها الفني**، ص73.

(2) الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، ص140.

(3) عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ص84.

(4) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص172. وانظر المصدر السابق، ص94.

صدّت عاديات الروم عن بلاد الشام وأطراف العراق غير مرّة، وبمغامراته، وحبه، وبكرمه وعطاياه [1].

أقدم المتنبي على مدح سيف الدولة، وهو بصدد البحث عن التوازن النفسي بين مثاليات الذات وإمكان تحقيقها، فحافظ شعره على إحساسه القديم بالعزة، ولمّا وجد في شخص سيف الدولة المثل الأعلى تنازل قليلاً عن العنف الذي كان يصاحب حديثه عن نفسه، وحاول أن يوجه هذا العنف، وأن يحوّله إلى طاقة يتفجر فيها مدحه لسيف الدولة، هذا المدح الذي يكشف عن عشق مبهور بممدوح لم يعد مجرد شخص يمدحه الشاعر طمعاً في نوال فحسب، وإنما قيمة عليا يترصدها الشاعر ويتغنّى بها، وهكذا تم التصالح بين الذات والمثل في رحلة حياة المتنبي والتزاوج بينهما [2].

فهو بالرغم من وفائه لسيف الدولة وافتتانه به، إلا أنه طمع في الحصول على ولاية أو حكم، ولم يعد يرضى بالقليل كما قال الثعالبي: "وما زال في برد صباه إلى أن أخلق برد شبابه، وتضاعفت عقود عمره، يدور حب الولاية والرياسة في رأسه" [3].

إن حياة سيف الدولة كانت ذات وجوه متعددة، فهو الأمير العربي ذو الأصل الكريم، يهتز للفدى، جواد سخي يمدحه المتنبي في تلك الصفات التي تعشقها النفس العربية[4]. لذلك تعددت اتجاهات مديحه في سيف الدولة، لتشمل مديح المعارك، والتي تتمثل فيها شجاعة سيف الدولة وبسالته، وشرف الأصل وتمجيد العروبة، والإشادة بكرم الأمير وجوده.

---

(1) الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، ص27.

(2) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص101.

(3) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ص130.

(4) عليان، محمد: **المديح في بلاط سيف الدولة الحمداني**، ص91.

أولاً: التغني بشجاعة سيف الدولة:

دارت مدائح المتنبي حول اتجاهات أبرزها البطولة والشجاعة، حيث نقل لنا صورة لما تحلّى به سيف الدولة من صفات الفروسية والشجاعة والإقدام ومنازلة الأعداء، فاستحق كل ثناء ومدح [1].

فسيف الدولة ولد الشجعان، وجدوده كالأسود التي تعودت على أكل اللحوم، وليله نهاراً لا تعوقه الظلمة عن إدراك ما يريد، ومطعمه مما يغنم من الأعداء، ومن شدة شجاعته يركب الليل لقضاء حاجاته. والضرب لا يكون إلا بكفّ سيف الدولة، يقول:

ومنْ تكنِ الأُسدُ الضَّواري جــدودَهُ   يكنْ ليلُهُ صــبحاً ومطعمُــهُ غَصْــبا   (الطويل)

إذا الدولةُ استكفتْ بِــهِ فــي ملمَّــةٍ   كفاها فكانَ السَّيفَ والكفَّ والقلبــا[2]

وسيف الدولة لمّا أتى الثغر ليقاتل الأعداء أتاه بكل همة ونشاط، فالبعيد عليه قريب، ورهبته تجعل أعداءه يفرّون من مقدمه، فهذا الدمستق يدبر منهزماً حين يسمع بقدومه، يقول:

أتى مَرْعَشاً يستقربُ البعــدَ مقــبلا   وأدبرَ إذْ أقبلْتَ يســتبعدُ القربــا[3]   (الطويل)

وخيل سيف الدولة ترجم الأرض بحوافرها فوق جبال قلعة الحدث، التي امتلأت طرقها بالثلج، والخلافة لمّا سمّت سيف الدولة بهذا الاسم من دون الناس أعدته لأمر من الأمور، يقول:

وتَرْدى الجيادُ الجُرْدُ فوقَ جِبالهــا   وقد نَدفَ الصِّنَّبْرُ في طُرْقِهــا العُطْبــا   (الطويل)

---

(1) عليان، محمد: **المديح في بلاط سيف الدولة الحمداني**، ص179.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\60-61.

(3) المصدر نفسه، 1\63.

لأَمْــــرٍ أعدَّتْــــهُ الخلافَـــةُ للعِـــدَى وسمَّتْهُ دونَ العالَمِ الصَّارمَ العَضْــبا [1]

إن سيف الدولة شاب عصامي، وفتى مغامر، ورجل تشع مخايل الفتوة من بريق عينيه[2]، والمتنبي إذا مدحه في سيفياته، فلا هو يستجدي أو يتوسل، ولكنه يتفجّر إعجاباً به[3].

فسيف الدولة هو سيف من الحديد، وغيره من الملوك من الخشب، فلا يشبهه أحد في الكرم، ولا في الشجاعة، ولا في الأدب، يقول:

وَلَــــوْ كُنْــــتَ سَــــمَّيْتَهُمْ باســــمِهِ لَكَــــانَ الحديــــدَ وكــــانوا الخَشَــــبْ (المتقارب)

أفي الرَّأيِ يُشْــبَهُ أم فــي السَّــخا ءِ أم في الشَّجاعةِ أم فــي الأدبْ[4]

وهو أخ للحرب، فقد عرفت به وعرف بها، فصار لها كالأخ، وإذا خدم خادماً، فهو مما سباه لا ممّا اشتراه؛ لأن ماله كله من سباياه، وإذا خلع ثوباً، فهو مما سلب من الأعداء، وإذا جمع مالاً، فإنه لا يسر منه إلا بما يهب، يقول:

أَخُو الحــربِ يُخــدِمُ ممَّــا سَــبَى قَنَــــاهُ وَيَخْلَــــعُ ممَّــــا سَــــلَب (المتقارب)

إذا حــــازَ مــــالا فقــــدْ حــــازَهُ فتــــى لا يُسَــــرُّ بمــــا لا يَهَــــبْ[5]

لقد كان إحساس المتنبي بالذات العربية، وبالصورة المثالية للإنسان العربي وراء كل هذا الزهو والانتشاء الذي سيطر على مديحه لسيف الدولة، فقد كشف هذا المديح عن إعجاب

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\67-68. والصنبر: السحاب البارد.

(2) الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، ص29.

(3) حطيط، كاظم: **أعلام ورواد في الأدب العربي**، ص29.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\99.

(5) المصدر نفسه، 1\99.

بقيم ومثل جعلت من سيف الدولة الإنسان الأمثل الذي لا نظير له في عين المتنبي، والذي يريد أن يظهره أمام الرأي العام بوصفه رمزاً للقيمة المفتقدة، والتي يجب على كل العرب أن يتمسكوا بها [1].

وسيف الدولة أبعد الناس همة وأعرفهم بمراتب الرجال، وهو يعطي كل واحد ما يستحق من الرتبة، فضلاً عن أنّه أطعن الرجال، يقول:

وأبعَـــــدَ ذِي همَّـــــةٍ همَّـــــةً وأعـــرَفَ ذي رتبـــةٍ بالرُّتَـــبْ **(المتقارب)**
وأطعَـــنَ مَـــنْ مَـــسَّ خَطِّيَّـــةً وأضربَ مَنْ بحســامٍ ضَــرَبْ [2]

إن قصيدة المديح عند المتنبي في تلك المرحلة ليست مدحاً لصفات ممدوح على أي نحو كانت، وإنما هي مسرح لاستعراض كلّ قيم الفروسية، فهي في مواضع معينة مدح عن طريق تعداد هذه الصفات وتلك القيم، وهي في مواضع أخرى مدح عن طريق استعراض المعارك الحربية التي خاضها سيف الدولة كمجاهد يعيد كلمة الدين من ناحية، ويعيد القيمة العربية من ناحية أخرى[3]. وكل امرئ يعمل بعاداته وما تعوده وتربى عليه لا يتكلفه، وعادة سيف الدولة أن يغزو الأعداء ويقتلهم ويطعنهم برمحه. ورُب متكبر عن الإيمان بالله رآه وسيفه في كفه، فآمن ونطق الشهادتين، يقول:

---

(1) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص117.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\100-101.

(3) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص97.

لكل امرئٍ من دهــرِهِ مــا تعــوَّدا   وعاداتُ سيفِ الدَّولةِ الطعنُ في العِدا (الطويل)

ومُستكبرٍ لــم يعــرِفِ اللهَ ســاعةً   رأى سَــيْفَهُ فــي كفِّــهِ فَتَشَــهَّدا[1]

إن البحر يسلم راكبه إذا كان ساكناً، فإذا ماج وتحرك كان مخوفاً، وكذلك سيف الدولة تخشاه الأعداء، وهو غاصب، يقول:

هوَ البحرُ غُصْ فيهِ إذا كانَ راكداً   على الدُرِّ واحْذرْهُ إذا كــان مُزْبِــدا (الطويل)

فإني رأيتُ البحــرَ يعثُــرُ بــالفَتى   وَهَذا الّذي يَــأْتي الفَتــى متعمِّــدا[2]

وسيف الدولة يقتل الأعداء ومع هذا يحبونه، وهذا شرف الشجاعة؛ لأن الشجاع محبوب حتى عند من يقتله، والدم يفخر بسيف الدولة، والفؤاد كذلك لشرفه وشجاعته، فهو مطبوع على الشجاعة والندى، ومجبول بهما، ولا يسلك طريقهما إلا من قادته نفسه إليهما، يقول:

وَمِنْ شَرَفِ الإقــدامِ أنَّــكَ فــيهُمُ   على القتلِ موْمُــوقٌ كأنَّــكَ شــاكِدُ (الطويل)

وأَنَّ دمــاً أجْرَيْتَــهُ بــكَ فــاخرٌ   وأنَّ فــؤاداً رعتَــهُ لــكَ حامــدُ

وكلٌّ يرَى طُرْقَ الشَّجاعةِ والنَّــدَى   ولكِنَّ طبعَ الــنَّفْسِ للــنَّفْسِ قائِــدُ[3]

إن ملوك الأرض جميعاً يخضعون لسيف الدولة، ويهلكون بمفارقتهم له، وهو يأخذ مال الأعداء بكل شجاعة وقوة، ثم يفنيه بالعطاء، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\281.

(2) المصدر نفسه، 1\282.

(3) المصدر نفسه، 1\276. الشاكد: المعطي. وموموق: محبوب.

تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاشــعةً لَــهُ تفارِقُــهُ هَلْكَــى وتلقــاهُ ســجَّدا (الطويل)
وتُحيي لَهُ المالَ الصَّــوارمُ والقَنــا ويقتلُ ما يحيــي التَّبَسُّــمُ والجَــدَا[1]

وهو يصل إلى كل الأمور الصعبة من شدة شجاعته، ولو كان قرن الشمس ماء لاستطاع أن يورده خيله، يقول:

وصولٌ إلى المستصــعباتِ بخيلــهِ فلو كانَ قرنُ الشَّمسِ ماءً لأورَدَا[2] (الطويل)

ولا شك أن في هذا الكثير من المبالغة، إلا أن إعجاب المتنبي بسيف الدولة جعله يبحر في اختيار الألفاظ والمعاني.

والمديح لم يكن في هذه المرحلة قصداً لهذا الرجل وتوسلاً إليه بصفات يستحبّها، وإنّما كان يصدر عن عشق وقناعة، بأن سيف الدولة يحمل من الصفات ما يؤهله لأن يوضع في أعلى مكانة، فالتغني بشجاعته وفروسيته أمر طبيعي؛ فهو فارس لا يخاف الهلاك، وإنما يخاف أن يمسه العار، فهو يهرب من اللؤم والدنس. ومن شدة شجاعته يعدل عنه العسكر العظيم، يقول:

للهِ قلبكَ ما تخــافُ مــن الــرَّدَى ويخــافُ أنْ يَــدْنو إليــكَ العــارُ (الكامل)
وتَحيدُ عن طَبَــعِ الخلائــق كُلِّــه وَيحيدُ عَنــكَ الجحفــلُ الجــرَّارُ[3]

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\282.
(2) المصدر نفسه، 1\283.
(3) المصدر نفسه، 2\87.

وكان سيف الدولة مغرماً بشعر المتنبي، ويودّ أن يسمع منه قصيدة مديح في كل حين، وكان المتنبي ينظم له كل سنة أربع قصائد أو خمساً غير القطع [(1)].

وسيف الدولة كان للأعداء كالسيف إلى أن خالفوه، فصارت شفرتاه فيهم، يقول:

وكنـــتَ السـيفَ قائمُــه إلــيهم   وفِــي الأعــداءِ حــدُّكَ والغــرَارُ   (الوافر)
فأمسَــتْ بالبُدَيَّــةِ شَــفْرَتاهُ   وأمْسَــى خَلْــفَ قائمِــهِ الحِيــارُ [(2)]

وسيوفه تريق دماء الأعداء هدراً دون ديّة، وكانوا قبل رؤية سيف الدولة أسداً، فلمّا قصدهم لم يقدروا على مقاومته، فأصبحوا كالطيور الضعيفة، يقول:

تُريــقُ ســيوفُهُ مُهَــجَ الأعــادِي   وكــلُّ دَمٍ أراقتْــهُ جُبــارُ   (الوافر)
وكانُوا الأسْدَ لــيسَ لهــا مَصَــالٌ   على طَيْــرٍ ولَــيْسَ لهــا مَطــارُ [(3)]

وانظر كيف يصف شجاعة سيف الدولة، فيخرج وصفه لهذه الشجاعة عن كونه مجرد وصف، لصفة تستدعي المدح، إلى حديث زهو وإعجاب بتلك الشجاعة التي وقفت تتحدى بعزيمتها كل التهديدات، فأقدمت غير متهيبة ولا متوقعة الموت[(4)]، يقول:

وَقَفْتَ وما في الموتِ شكٌ لواقــفٍ   كأنّكَ في جَفْنِ الــرَّدَى وهُــوَ نــائم   (الطويل)
تمُرُّ بكَ الأبْطــالُ كَلمــى هزِيمــةً   ووَجْهُكَ وَضَّاحٌ وثَغْــرُكَ باسِــمُ [(5)]

---

(1) عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ص93.
(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\102.
(3) المصدر نفسه، 2\107.
(4) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص117.
(5) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\386-387.

لقد استطاع المتنبي أن يضيف إلى هذه الأبيات ذلك الإيقاع الحماسي، الذي يشعرنا بأننا أمام صورة حيّة ومتحركة يقودها بطل عربي تتعلّق به وببسالته الآمال العربية.

ولنتأمل أبياته التي يصف بها أجواء الحرب التي تقلقل الجبال، فتحقق الشرف الذي ينطح النجوم ويزاحمها بالنصر، يقول:

شَرَفٌ يـنطَحُ النجـومَ بَروْقَيْـــ ـــهِ وعِــزٌّ يقلْقِــلُ الأَجْبــالا (الخفيف)

حالُ أعدائِنا عظــيمٌ وسَــيْفُ الــدَّ وْلَةِ ابــنُ السّــيُوفِ أعظَــمُ حــالا

كلَّمــا أعْجَلُــوا النَّــذيرَ مَســيراً أَعْجَلَـــتْهُمْ جِيـــادُهُ الإِعْجَـــالا

فأَتَتْهُمْ خوارِقُ الأرضِ مــا تحْـــ ـــمِلُ إلا الحَدِيــدَ والأبْطـــالا[1]

وسيف الدولة أظهر بسالته في قتال الأعداء، ممّا استدعى المتنبي لأن يلقبه بفارس الخيل الذي يعتز به جيشه، يقول:

وفارسُ الخَيْلِ من خَفَّــتْ فَوَقَّرَهــا في الدَّربِ والدَّمُ في أعطافِهــا دُفَــعُ (البسيط)

بــالجَيْشِ تمتنــعُ السَّــاداتُ كلُّهُــمُ والجيشُ بابنِ أبي الهيجاءِ يمتنــعُ[2]

إن الإنسان يخطئ الظن في بعض الأحيان، فقد يرى من به خفة شجاعاً، وقد يرى من تعتريه رعدة من غضب جباناً، إلا أن المتنبي تحقق من أمر سيف الدولة بالتجربة، فهو لم يخطئ بحكمه عليه ولم يكذب.

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\134-135.

(2) المصدر نفسه، 2\223.

فليس كل من يحمل السلاح شجاعاً، ولا كل ذي مخلب سبعاً، وهناك الكثير من الناس يتزينون في لبس السلاح، ويشاركون في ذلك سيف الدولة، لكنّهم يقصرون عن فعله، يقول:

فقد يَظنُّ شُجاعاً مَــنْ بِــهِ خَــرَقٌ وَقَدْ يَظــنُّ جَبانــاً مَــنْ بِــهِ زَمَــعُ (البسيط)

إن السلاحَ جميــعُ النَّــاسِ تحملُــهُ وليسَ كل ذواتِ المِخْلَــبِ السَّــبُعُ[1]

وكان سيف الدولة ينتشي بسماع مثل هذه الأبيات، مما يدفعه إلى أن يكبر المتنبي، ويؤثره ويختصه بما لا يختص به غيره، من ندمائه وشعرائه والعاملين في قصره، والمختلفين إليه؛ وكان ذلك يثير حسد الحساد وعلى رأسهم أبو فراس الحمداني[2]. الذي كان يكن للمتنبي الغيظ، وعندما أنشد سيف الدولة، قائلاً:

والخيلُ والليلُ والبيــداءُ تعرفُنِــي والضَّربُ والطَّعنُ والقِرطاسُ والقلمُ [3] (البسيط)

قال أبو فراس: "وما أبقيت للأمير، إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة، تمدح نفسك بما تسرقه من كلام الناس وتأخذ جوائز الأمير"[4]. مع أن المتنبي أبدع في مدح الأمير سيف الدولة، وقد انتقل من مرحلة إلى مرحلة أثناء وجوده لديه، ففي السابق كانت قصيدة المديح تبدأ بحديث المتنبي عن نفسه، وأهميته وقيمته ومقدرته وشجاعته إلى غير هذا من المفاخر، ثم يتحول الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن ممدوحه، وهذا يعود إلى إحساسه بالتفوق على ممدوحيه، أما هنا وهو أمام سيف الدولة الأمر فمختلف جداً، فهو يمدح شخصاً

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\234.

(2) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص172.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\369.

(4) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص90.

ويشعر بالامتزاج الكامل بين ما تطمح إليه الذات من جهة، وإمكانية التجسيد من جهة ثانية. من أجل هذا وجدنا المتنبي في تلك المرحلة يؤخّر نفسه عن ممدوحه، وإن بقي يتغنى بها [1].

وها هو يستأنف مديحه لسيف الدولة الذي تبيت رماحه فوق أعناق خيله استعداداً لقتال العدو، يقول:

تَبيــتُ رماحُــهُ فَــوقَ الهــوادِي ... وقد ضَرَبَ العَجاجُ لهــا رِوَاقَــا[2] (الوافر)

وهو شجاع متناهي الشجاعة، وجواد متناهي الجود. والبخل في نظره من باب الجبن، وهو يفتح الفتوح العظيمة ولا يفخر لها، ويسرع إليها ولا يحتفل لها، يقول:

هو الشُّجاعُ يَعِدُّ البخلَ مــن جــبنٍ ... وهو الجوادُ يَعُدُّ الجبنَ مــن بَخَــلِ (البسيط)

يعودُ من كلّ فــتحٍ غيــرَ مفتخــرٍ ... وقد أَغَدى إليــهِ غيــرَ مُحتفِــلِ[3]

إن من الخصال التي يمتاز بها شعر المتنبي في هذا الطور، أنه استطاع لا أن ينشئ فناً جديداً من فنون الشعر فحسب، بل أن ينمّي فناً من هذه الفنون ويقويه، ويكثر القول الجيد فيه حتى يمنحه من الاستقلال ما يجعله فناً قائماً بنفسه[4]. ففن المديح من أبرز الفنون التي اشتهر بها المتنبي، وها هو يتغنى بشجاعة سيف الدولة مرّة أخرى، فهو الشجاع الذي يقي عرضه بسيفه، وهو ملك عالي الهمة، رفيع القدر، سيفه مسلول يغلب من غالبه، ويحمي بلاد المسلمين من الأعداء، يقول:

---

(1) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص96.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\300.

(3) المصدر نفسه، 3\38-39.

(4) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص173.

لـــــيسَ إلاكَ يـــا عَلِـــيُّ همـــامٌ ســـــيفُهُ دونَ عِرْضِـــهِ مَسْـــلُولُ (الخفيف)
كيف لا يــأمنُ العــراقُ ومِصْــرٌ وسَـــــراياكَ دُونهـــا والخُيُـــولُ[1]

وما فيه من الشجاعة قد تجاوز حد العقل حتى إنه لا يحذر الموت، يقول:

تَجاوزْتَ مقدارَ الشَّجاعةِ وَالنهـــى إلى قَوْلِ قومٍ أنت بالغيبِ عـــالِمُ[2] (الطويل)

ومن عادة سيف الدولة أن يقود خيله إلى الطعان، وتلك عادة الشجعان، يقول:

قادَ الجيادَ إلى الطِّعـــان ولـــم يقُـــدْ إلا إلـــى العـــاداتِ و الأوطـــانِ[3] (الكامل)

ثانياً: التغني بكرم سيف الدولة:

كان المتنبي يرى في أميره الإنسان العربي الكريم الذي يتحلّى بأجمل صفات العرب، ألا وهي صفة الكرم والسخاء، ولهذا قال عندما مرض سيف الدولة، إنّه إذا اعتلّ سيف الدولة اعتلت الأرض ومن فوقها، وكذلك البأس والكرم؛ لذلك يدعو المتنبي –الله عز وجلّ– أن يشفيه؛ لأنه يشفي بجوده من أصابه سوء الحال، فهو بحر فائض بكرمه اللامحدود، يقول:

إذا اعتلَّ سيفُ الدولةِ اعتلَّتِ الأرض ومَنْ فوقَها والبأسُ والكَرَمُ المَحْض (الطويل)
شفاكَ الّذي يشـــفي بجـــودِكَ خَلْقَـــه لأنّك بحرٌ كل بحرٍ لَـــهُ بعـــضُ[4]

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\156.
(2) المصدر نفسه، 3\387.
(3) المصدر نفسه، 4\176.
(4) المصدر نفسه، 2\218.

وسيف الدولة أفضل من السحاب؛ لأن الأرض تجف من ماء السحاب وتصبح ثيابها التي أنبتها –الله عز وجل– عن طريقه خلقاناً باليات، أما عطاء سيف الدولة فيبقى على مرّ الزمان، وماء الغيث ينقطع، وعطاء سيف الدولة دائم لا ينقطع، يقول:

تجِفُّ الأرضُ مِــن هــذا الرّبَــابِ ... وتُخْلِــقُ مــا كَسَــاها مِــن ثيــابِ (الوافر)

ومــا ينفَــكُّ مِنْــكَ الــدَّهْرُ رَطْبــا ... وَلا يَنْفَكُّ غيثُكَ في انســِكابِ[1]

والسحب تسايره كما يساير الحبيب الحبيبة لتتعلم من جوده. لكن السحب لا تقدر على أن تأتي بمثل أخلاقه العذبة، يقول:

تســايرُكَ السَّــوارِي والغَــوَادِي ... مســايَرَةَ الأحِبّــاءِ الطِّــرَابِ (الوافر)

تُفِيــدُ الجــودَ مِنْــكَ فَتَحْتَذيــهِ ... وتعجِزُ عــن خلائِقِــكَ العِــذابِ[2]

لقد كانت مملكة سيف الدولة محاطة بالرخاء والخير، فكرم سيف الدولة غمر الجميع ومن بينهم الشعراء وعلى رأسهم المتنبي.

ونحن نستطيع أن نعتبر هذه الأعوام التي قضاها المتنبي عند سيف الدولة خير أعوامه، وأخصبها وأغناها وأكثرها حظاً [3].

وهكذا نسي المتنبي الفقر بعد أن ذاق مرّه، وكنز المال بعد أن كان لا يملك شروى نقير، وكان المال وسيلته لتحقيق مآربه الواسعة[4]، ها هو يستأنف مديحه لسيف الدولة مشبهاً إياه

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\46-47.

(2) المصدر نفسه، 1\47.

(3) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص173.

(4) التونخي، محمد: **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس**، ص35.

بالغيث الذي ينبت الجلود من خلال أعطياته، فهو رجل يعطي الجزيل، ويزجر الخيل ويهتك الدروع بسيفه وسنانه، يقول:

فبوركْتَ مِنْ غيثٍ كــأَنَّ جلودنـــا بِهِ تُنْبِتُ الدِّيباجَ والوَشْي والعَصْبا (الطويل)

ومِنْ وَاهبٍ جزلاً ومن زاجرٍ هَـــلا ومِنْ هاتكٍ دِرْعاً ومِنْ باترٍ قُضْبا[1]

والمتنبي يثني عليه بنعمه السابقة له ولغيره، فهو أمير كريم عطاياه إن انقطعت عن المتنبي، فيبقى لديه منها الكثير، يقول:

وَأُثْنِــــــي عليـــــهِ بآلائِـــــــهِ وأَقْــرُبُ مِنْـــهُ نَـــأى أو قَـــرُبْ (المتقارب)

وَإِنْ فـــــــارقَتْنِي أمطـــــــارُهُ فـــأكثرُ غـــدرانِها مـــا نَضَـــبْ[2]

ولم يقتصر جود سيف الدولة على المال فقط، بل كان يتعدى المال ليشمل الأعطيات والهبات، فخيّر المتنبي يوماً بين فرسين إحداهما دهماء والأخرى كميت، فقال:

اختـــرتُ دهمـــاءَتينِ يـــا مطـــرُ ومَنْ لَهُ فـــي الفضـــائِلِ الخَيْــرُ (المنسرح)

وربّمـــا قالـــتِ العيـــونُ وقـــدْ يصدُقُ فيهـــا ويَكْـذِبُ النَّظَــرُ[3]

وسيف الدولة ليس سيفاً عادياً كالسيوف، وهو صاحب المكارم والعطايا، يقول:

أيـــا ســـيفَ رَبِّـــكَ لا خلقِـــهِ ويَا ذا المكـــارِمِ لا ذا الشُّـطَبْ[4] (المتقارب)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\62.

(2) المصدر نفسه، 1\100.

(3) المصدر نفسه، 2\89.

(4) المصدر نفسه، 1\100.

أليس في اصطفاء سيف الدولة للمتنبي ما ينم عما كان يتّقد به قلب أمير حلب من حبّ عميق للأدب الزاخر بروائع الحكم، ومن إجلال خالص لهذا الشاعر العبقري الذي عرف كيف يذيع اسم أميره عالياً، ويرتفع به إلى السماكين [1].

وكرم سيف الدولة ينضيه في الحرب، وسيفه ليس كسيوف الحديد التي تنتضي وتغمد، وهو أحق الناس بأن يسمى سيفاً؛ لأنه لا يخاف الشدائد، يقول:

له من كريمِ الطَّبْعِ في الحرْب مُنْتَضٍ ... ومِنْ عادةِ الإحسانِ والصَّفْحِ غامــدُ (الطويل)
أحقُّهُمْ بالسيفِ من ضَــرَبَ الطُّلَــى ... وبالأمْنِ مَنْ هانَتْ عليهِ الشَّــدائدُ [2]

وحبّ المتنبي له بسبب فضله على غيره لا لطلب العيش عنده، فقد يطلب العيش عند غيره، ولكن فضل سيف الدولة لا يماثله فضل، يقول:

وذَاكَ لأنَّ الفضلَ عندَكَ باهرٌ ... وليسَ لأنَّ العيشَ عِنْــدَكَ بــاردُ [3] (الطويل)

وبقي لسان المتنبي يلهج بالإشادة بكرم الأمير سيف الدولة وإحسانه، فسيف الدولة أعظم وأسمى من أن يحيط المديح بكل صفاته، مع ذلك يصفه بالجواد الشجاع في الحرب، وبالبحر الذي يعمّ خيره على الناس جميعهم، يقول:

---

(1) الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، ص26.
(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\272. منتض: مسلول.
(3) المصدر نفسه، 1\280.

مُعْطي الكواعبِ والجُرْدِ السلاهِبِ والبيـــ ـــضِ القواضِبِ والعَسالَةِ الذّبلِ (البسيط)
أنـــتَ الجـــوادُ بـــلا مَـــنٍّ ولا كَـــذِبٍ ولا مِطالٍ ولا وَعْدٍ ولا مَذَلِ [1]

وعطاؤه إلى عطاء سائر الملوك كاللبن القليل إلى اللبن الكثير، يقول:

وَلَـــهُ وإنْ وَهَـــبَ الملـــوكُ مواهِـــبٌ دَرٌّ الملـــوكِ لِـــدَرّها أغبـــارُ[2] (الكامل)

ولا عيب في سيف الدولة إلا إنه من البشر ، فهو أجل قدراً منهم، وعطاؤه وفضله لا يكون في بني آدم، يقول:

أنـــتَ الّـــذي لـــو يعـــابُ فـــي مـــلأ مـــا عِيـــبَ إلا لأنَّـــهُ بشـــرُ (المنسرح)
وإن إعطـــاءَهُ الصَّـــوارِمُ والخيـــ ـــلُ وســـمرِ الرّمـــاحِ والعَكَـــرُ[3]

إن المتنبي وجد تحقيقاً لطموحاته ومساعيه في شخص سيف الدولة، ولكن الظروف والصراعات والطموحات الزائدة اضطرته إلى أن يتركه فيما بعد [4].

ومن عادة المتنبي الدعاء للمدوح بطول العمر، فكيف إذا كان ممدوحه سيف الدولة صاحب الكرم، يقول:

مَا ينتهـــي لَـــكَ فـــي أيّامِـــهِ كَـــرَمٌ فلا انتهى لَكَ في أعوامِهِ عُمُرُ [5] (البسيط)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\79-87.
(2) المصدر نفسه، 2\87.
(3) المصدر نفسه، 2\89.
(4) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص160.
(5) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\97.

وجوده غمر الأمم جميعها، يقول:

لَقد جُدْتَ حتى جُدْتَ في كــلّ ملّــةٍ   وحتى أتاكَ الحمدُ مِنْ كلّ مَنْطِقِ [1] (الطويل)

وإذا شبه المتنبي جوده بالأمطار الغاديات، وهي من أغزر الأمطار افتخر المطر بذلك، يقول:

تشبيهُ جــودِكَ بالأمطــارِ غاديَــةً   جُــودٌ لكفِّــكَ ثــانٍ نَالَــهُ المطــرُ[2] (البسيط)

وعندما أقبل إليه رسول تصور له أنه البحر في السخاء والبدر في العلاء، يقول:

فَأقبلَ يمشي في البساطِ فَمَــا دَرَى   إلى البَحْرِ يمشي أَمْ إلى البدرِ يَرْتَقِي [3] (الطويل)

وقال يمدح سيف الدولة، وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية:

رُوَيْــدَكَ أيهــا الملــكُ الجليــلُ   تــــأيَّ وَعُــــدَّهُ ممـــــا تُنِيــــلُ (الوافر)
وجــودَكَ بالمُقــام ولــو قلــيلاً   فَمَــا فِيمــا تجــودُ بِــهِ قَلِيــلُ[4]

وها هو يعود لتشبيه سيف الدولة بالمطر مرّة أخرى، مستغرباً أهذا المطر من السحاب أم من تغلب قبيلته؟! يقول:

ويهــدأ ذا السَّــحابُ فقــد شَــكَكْنا   أتغلـــبُ أم حيـــاهُ لكـــمْ قَبيـــلُ[5] (الوافر)

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\310-311.
(2) المصدر نفسه، 2\99.
(3) المصدر نفسه، 2\312.
(4) المصدر نفسه، 3\3.
(5) المصدر نفسه، 4/3.

إن مهمة السيف القاطع هي القطع، أما سيف الدولة فمهمته القطع والوصل، فهو يقطع الأعداء، ويصل الأولياء، ويبر بقاصده، يقول:

وما للسَّيفِ إلا القطعَ فِعْلٌ وأنتَ القاطِعُ البَرُّ الوَصُولُ (الوافر)
وأنتَ الفارسُ القوَّالُ صبراً وقد قَنِيَ التكلُّمُ والصَّهيلُ[1]

ولا غنى عن سيف الدولة لجلالة قدره ولشدة فضله. وكل كرام بني الدنيا إخوانه؛ لأنهم يوافقونه ويشابهونه، لكنه المبرز فيهم، والمقدم عليهم؛ لأنه أكرمهم، والمحتوي على جميع أفعالهم، يقول:

الّذي ليسَ عنه مُغْنٍ ولا منــ ـهُ بديلٌ ولا لِمَا رَامَ حامي (الخفيف)
كل آخائِهِ كرامُ بَنِي الدُّنْـ ـيا ولَكِنَّهُ كريمُ الكرامِ[2]

والكرام كلهم يقتدون بأفعاله، وكل أناس لهم إمام يؤمونه، وهو إمام أهل المكرمات وسيدهم يقول:

وكلُّ أناسٍ يَتْبَعُونَ إمامَهُمْ وأنتَ لأهلِ المكرماتِ إمامُ[3] (الطويل)

لاحظنا أن شعر المتنبي في سيف الدولة كان ذا وجوه عدة، ومع أن سيف الدولة هو الموضوع الأساسي الذي يدور حوله شعر المتنبي في الأعوام التي قضاها معه، إلا أن هذا الشعر مختلف الأنواع والألوان والفنون، ولم يكن هذا الاختلاف ناشئاً عن رغبة المتنبي في

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\6-7.
(2) المصدر نفسه، 3\378.
(3) المصدر نفسه، 3\396.

التنويع والافتتان، وإنما كان ناشئاً عن أن حياة سيف الدولة نفسه كانت مختلفة الوجوه، فقد كان أميراً عربياً، شريف الأصل، كريم النسب، جواد اليد، بعيد الهمة [1].

ثالثاً: التغني بشرف أصل سيف الدولة وتمجيد عروبته:

لقد تغنّى المتنبي بشرف أصل سيف الدولة كذلك في قصيدته التي مطلعها:

أجَابَ دَمْعِي وما الداعي سِوى طَلَلِ ... دعا فلبَّاهُ قبل الرَّكبِ والإبِلِ (البسيط)

مِن تغلِبَ الغالبينَ الناسَ منْصِبُه ... ومَنْ عَدى أعادي الجُبن والبَخَلِ [2]

وهو يدعو تغلب لأن تفخر وتشمخ بين القبائل؛ لأنها قبيلة الفارس الحمداني المقدام، يقول:

فتيهاً وفخراً تغلِبَ ابنَةَ وائلٍ ... فأَنْتِ لخيرِ الفاعلينَ قَبيلُ[3] (الطويل)

ويشير إلى أصل سيف الدولة، وإلى آبائه الكرام، قائلاً:

وأَنْتَ أبو الهيجا ابنُ حمدانَ يابْنَهُ ... تَشَابَهَ مولودٌ كريمٌ ووالدُ (الطويل)

وحمدانُ حمدونٌ وحمدونُ حارثٌ ... وحارثُ لقمانٌ ولقمانُ راشدُ

أولئكَ أنيابُ الخلافَةِ كُلُّها ... وسَائِرُ أملاكِ البلادِ الزَّوائِدُ[4]

---

(1) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص172.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\74-80.

(3) المصدر نفسه، 3\109.

(4) المصدر نفسه، 1\277-279.

وقد وصف المتنبي سيف الدولة بأنه أمير العرب الحقيقي، وبأنه الملاذ الذي تتعلق به أنظار المسلمين، يقول:

فهمْـــتُ الكِتــــابَ أبَـــرَّ الكُتُــــبْ   فَسَــمْعاً لأمــرِ أميــرِ العَــرَبْ[1] (المتقارب)

وسيف الدولة ابن أشهر قبائل العرب، فكان حتماً على الشعراء أن يمدحوه بشرف أصله، وكان شرف الأصل وتمجيد العروبة، مجالاً واسعاً خاضه الشعراء في مدح الأمير العربي سيف الدولة وعلى رأسهم المتنبي.

وسيف الدولة سيف كاسمه، وهو عربي من ولد نزار بن معد بن عدنان، فالخوف منه أولى من الخوف من سيوف الحديد، والليث يرهب ويخاف على وحدته وانفراده، فكيف يكون ليث معه جماعة من الليوث يريد سيف الدولة وأصحابه:

تُهابُ سُيوفُ الهند وهـــيَ حَدائـــدٌ   فكيـــفَ إذا كانَـــتْ نزاريَّـــةً عُرْبـــا (الطويل)

ويرهبُ نابُ اللَّيثِ واللَّيثُ وَحْـــدَهُ   فكيفَ إذا كانَ اللُّيوثُ لَهُ صَـــحْبا[2]

واسمه علي وهو اسم مبارك، مشتق من العلو، والعلو محبوب، ومشهور بلقب سيف الدولة، وهو لقب شائع في الآفاق، وهو شريف النسب كذلك، لأنه من أشرف الأقوام، يقول:

مُبــــارَكُ الاســـمِ أغـــرُّ اللَّقَـــبْ   كريمُ الجِرشيِّ شريفُ النَّسَـــبْ[3] (المتقارب)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\96.

(2) المصدر نفسه، 1\61.

(3) المصدر نفسه، 1\99. الجرشيّ: النفس.

وهو فوق كل أحد بالعقل والإصابة، وشرف الأصل، يقول:

وَوَضْعُ النَّدَى في موضعِ السَّيفِ بالعُلا مُضِرٌ كَوَضْعِ السَّيفِ في موضعِ النَّــدَى (الطويل)
ولكن تفــوقُ النــاسَ رأيــاً وحِكمــة كمــا فُقْــتَهُمْ حــالاً وَنفْســاً ومَحِتــدا[1]

برز الحمدانيون كقوة عربية، وكانوا كغيرهم من العرب الغيورين، الذين أزعجهم ما قام به الخلفاء العباسيون حين وضعوا مقاليد أمورهم في أيد غير عربية [2].

فهم بذلك خير الأنام وأشهرهم بالفضائل، وسيف الدولة من أفضل القبائل التي فيها العلو والرفعة والعدد والمنعة، وهي من أطعن القبائل في الحرب، فاحتلت بصفاتها تلك المرتبة الأولى بين القبائل، فضلاً عن أنها اكتسبت المجد والرفعة من سيف الدولة كذلك، يقول:

إنْ كنتَ عن خَيــرِ الأنــامِ ســائلاً فخيــــرُهُمْ أكثـــرُهُمْ فضـــــائِلا (الرجز)
من أنتَ مِــنْهمْ يــا همــامُ وائِــلا الطَّـــاعِنِينَ فـــي الـــوَغَى أوائِـــلا
والعاذلينَ فــي النَّــدَى العَــوَاذِلا قـــد فَضَـــلُوا لِفَضْـــلِكَ القَبَـــائِلا[3]

والعرب جميعهم يفخرون بسيف الدولة ليس ربيعة قومه فحسب، يقول:

تَشَــرَّفُ عــدنانٌ بِـــهِ لا ربيعـــةٌ وتفخِرُ الــدُّنْيا بـــه لا العواصِــمْ[4] (الطويل)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\288-289.

(2) عليان، محمد: **المديح في بلاط سيف الدولة الحمداني**، ص25.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\111.

(4) المصدر نفسه، 3\391.

والعرب جميعهم يفخرون به؛ ذلك أن إحسانه غمرهم حتى طال العجم، يقول:

تَفرَّدَ العُرْبُ فـــي الـــدُّنيا بمحتـــدِهِ   وشارَكَ العُرْبَ في إحسانِهِ العَجَمْ [1]   (البسيط)

والعرب ارتفعت به وقاتلت باسمه الملوك، وأوقدت على رؤوسهم نار الحرب، فهم منتسبون إلى شرف سيف الدولة، وأنسابهم معروفة تعود إلى عدنان، يقول:

رَفَعَتْ بكَ العَرَبُ العمادَ وصَيرتْ   قِمَـــمَ المُلُـــوكِ مواقـــدَ النِّيـــرانِ   (الكامل)

أنســـابُ فخـــرِهِمِ إليـــكَ وإنَّمَـــا   أَنْسَـــابُ أصـــلِهِم إلـــى عـــدنانِ [2]

وحقاً إن سيف الدولة كان عظيماً بكل صفاته، والمتنبي كان شاعراً عبقرياً عرف كيف يصل إلى قلب الأمير، وأحب كل منهما الآخر إلى أن سعى الحساد بالنميمة ففرقوا بينهما، وبهذا لم تكتمل فرحة المتنبي[3]. واسم سيف الدولة بقي يقرن باسم المتنبي حتى الآن، مما دفع الكتاب إلى طرح السؤال الآتي:

من خلد الآخر المتنبي أم سيف الدولة؟

بعضهم قال: إن سيف الدولة وشاعره قد تقاسما بناء صرح مجدهما في المعارك الحربية والشعرية، فكأن شخصية كل واحد تكمل الآخر، فكلاهم كان سبباً في خلود الآخر[4]، وإن كلاً منهما متمم جزء من الثاني، وممهد له طريق البقاء والخلود على مدى الدهر[5]، وأنه لولا

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\376.
(2) المصدر نفسه، 4\184-185.
(3) عبد الجابر، سعود: **الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني**، ص78.
(4) عليان، محمد: **المديح في بلاط سيف الدولة الحمداني**، ص95.
(5) عبد الجابر، سعود: **الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني**، ص78.

المتنبي لكان الأمير سيف الدولة الحمداني نسياً منسياً، وكذلك المتنبي، فسيف الدولة أثّر في تكوين عبقريته، وعليه فكلاهما خلّد الآخر، وفي هذا إنصاف للأدب والتاريخ معاً [1].

أما أبو منصور الثعالبي فيقول: "هو شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به، إذ هو الذي جذب بضبعه، ورفع من قدره، ونفق شعر شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت الليالي تنشده، والأيام تحفظه" [2].

وبرأيي أن سيف الدولة مدين إلى المتنبي بشهرته وخلوده، فهو الذي خلّده في قصائده التي تزيد على ثلث الديوان، وأنه لولا المتنبي لما ذاع اسم سيف الدولة، ولكان أميراً عادياً كغيره من الأمراء.

لقد رأينا كيف أن المتنبي نشأ في الفقر فما ذل، ووهب النجابة فسما بها، وطمح فما كان لطموحه حد، وكرم في النفس فغرّ وكبر، وقوي في ذاته فاقتحم الصعاب، وسعى إلى المجد وطلب الملك بالسيف فنبا، ورحل إليه بالشعر فما وصل إلى ما أراد، ونكب أكثر من مرّة في عزته وكبريائه، وجرحت الأيام أمانيه، وكان الآخر نقمة عليه في بعض الأحيان [3]، وقد كان ديوان المتنبي صورة واضحة لحياته، وآماله وقلقه [4].

---

(1) الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، ص140.

(2) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ص126. بضبعه: كناية عن أنه رفعه، وأعلى من قدره.

(3) حطيط، كاظم: **أعلام ورواد في الأدب العربي**، ص121.

(4) الجندي، أنور: **خصائص الأدب العربي**، (د، ط)، بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د، ت)، ص120.

الفصل الثالث

الآخر الأعجمي المسلم وغير المسلم

المبحث الأول: الآخر الأعــجمي المســــلم

المبحث الثاني: الآخر الأعجمي غير المسلم

المبحث الأول

الآخر الأعجمي المسلم

المتنبي عربي النسب والنشأة، وهو يمثل العروبة في أخلاقه ونزعاته وسيرته، ويعطف على القبائل العربية، ويتعصب لها [1].

حلّ المتنبي في البادية في صباه، وظلَّ طوال حياته بدوي النزعة خالص العروبة، يمجّد القومية العربية، ويؤثر الجنس العربي؛ وقد أنمى في ذاته شمائل النفس العربية كالسخاء، والأنفة والبسالة، والطموح إلى السيادة والمجد [2].

وظهرت قومية المتنبي في نواحٍ متعددة من شعره، فحرص على جمع الكلمة، وخلع النير الأجنبي، وذلك عندما شاهد تراجع أحوال العرب، وانحلال السلطان العباسي، وكثرة الشعوب المختلطة، والمذاهب المتعددة التي استفحل أمرها، وطمعت بالحكم، وقامت تعرض تفوقها الثقافي، فيما كان العرب منكفئين على نفوسهم للتأمل والتحصيل [3].

ويؤكد المتنبي أهمية تعريب القيادة، لأنه يرى إصلاح الناس بإصلاح الملوك في قوله:

وَإنّمــا النّــاسُ بــالملوكِ ومَــا تُفلِــحُ عُــرْبٌ مُلوكُهــا عَجَــمُ (المنسرح)

لا أدبٌ عنــــدهُمُ ولا حَسَــــبٌ ولا عهــودٌ لَهُــمْ ولا ذِمَــمُ[4]

---

(1) الطبال، أحمد: **المتنبي (دراسة نصوص من شعره)**، ط1، طرابلس: منشورات المكتبة الحديثة، 1985، ص12.

(2) فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ط12، المطبعة البوليسية، 1987، ص63.

(3) المصدر نفسه، ص596.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\59.

أولاً: الآخر الأعجمي المسلم الممدوح:

كان الإخشيديون يطمعون في بسط سلطانهم على حلب، والحمدانيون يطمعون في بسط سلطانهم على مصر، فأوعز كافور إلى عامله في فلسطين أن يجتذب المتنبي الذي ذاع صيته إلى جانبه، ويغريه بالقدوم إلى مصر (1).

ويبدو أن المتنبي كان على حق حين وصف شعره قائلاً:

قَوَافٍ إذا سِــرْنَ عــن مِقْــوَلِي وَثبنَ الجبالَ وخُضْــنَ البِحــارا (2) (المتقارب)

فقد سبقته شهرته إلى مصر ودمشق وبغداد والفسطاط، وعمّت أنحاء العالم الإسلامي حتى أصبح العظماء يتمنون قدومه، ويتتبعون أخباره، واستجاب المتنبي ولبّى دعوة كافور؛ أملاً في تحقيق الحلم الذي كان يراوده منذ صباه، وهرباً من أعدائه ومنافسيه في بلاط سيف الدولة، ولم يخطر بباله، أن القصد من استدعائه إلى مصر، لم يكن سوى مؤامرة إخشيدية على نفوذ الحمدانيين في الأوساط العربية (3).

وكان كافور عبداً زنجياً، وأعجمياً مسلماً. وقد صحبه المتنبي وامتدحه بضع سنوات، فكان من أبرز الشخصيات الأعجمية المسلمة التي حظيت باهتمام الشاعر، وكان لها حضورها الصارخ في ديوانه.

---

(1) شرارة، عبد اللطيف: **أبو الطيب المتنبي (دراسة ومختارات)**، ط1، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 1988، ص74-75.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\95.

(3) شرارة، عبد اللطيف: **أبو الطيب المتنبي (دراسة ومختارات)**، ص74-75.

ولم يكن مدح المتنبي لكافور إلا لغاية، فالمدح آلة تكسّب، وطلب رفعة يعتمدها الشاعر؛ ليستدر بها يد عظيم، أو ليلج قصر أمير، ولا بأس في سبيل ذلك أن يتزلق الشاعر ويتملق، ويغرق في المدح حتى المبالغة، ونادراً ما تنظم المدائح لمجرد الإعجاب بمناقب شخص، دون أن يكون وراء ذلك رغبة في نوال يرجى، أو شكر على عطاء سلف [1]، وهذا ما حدث مع المتنبي، وممّا قاله:

وغيرُ كثيرٍ أن يــزوركَ راجــلٌ   فيرجـــعَ مَلْكـــا لِلعـــراقَينِ واليـــا   (الطويل)

فقدْ تهبُ الجيشَ الذي جاء غازِيا   لِسائلكَ الفردِ الذي جــاءَ عافيـــا[2]

وممّا قاله أيضاً:

إذا لم تَنُطْ بي ضـــيعةً أو وِلايـــةً   فجُودُك يَكسُوني وشغلُكَ يســلُبُ[3]   (الطويل)

وكان المتنبي في صحبة كافور "عدواً مداجياً" لا "صديقاً منخدعاً". ولقد لعبت الأوتار الخفية دوراً أساسياً في تلك الصحبة أو – العداوة – ولم يتضح تاريخها الحقيقي بعد، لشدة ما أحيط بها من كتمان وحذر، ومحاولات خداع قامت بها أطراف عدة من وراء ستار [4].

وأشار المازني إلى ذلك في قوله "إنه لم يمدح كافور لأنه رآه أهلاً لمدحه، بل طمعاً في ولاية بعض أملاكه كما هو معروف، أما المدح فإنا والله نراه تهكم به، ولم يثن عليه. وما قرأنا

(1) الهاشم، جوزف: أبو الطيب **(شاعر الطموح والعنفوان)**، (د، ط)، دار المفيد، (د، ت)، ص38.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\290.

(3) المصدر نفسه، 1\182.

(4) شرارة، عبد اللطيف: أبو الطيب **(دراسة ومختارات)**، ص74.

له قصيدة في كافور إلا عثرنا فيها على بيت أو أبيات تشعر بأن المتنبي كان يركبه بالدعابة ويرى نفسه أجل، وأخطر شأناً من أن يمدحه "[1].

والمتنبي لم يفارق حلب، ولم يلجأ إلى كافور، إلا بعد أن استوثق لنفسه عند الإخشيديين. وأكبر الظن أن الرسل قد سعوا سراً بين المتنبي، والإخشيديين في آخر أوقاته بحلب، وأن هؤلاء الرسل لم يضمنوا له الجوار والأمن عند الإخشيديين فحسب، وإنما جاؤوه أيضاً بالوعود المطمعة، والآمال المغرية، فلم يتحول عن شمال الشام إلى جنوبها إلا وهو يعلم ما يريد، ويقدر أن حاله عند الإخشيديين ستكون خيراً من حاله عند الحمدانيين، وأنه سيظفر في ملك مصر ما لم يظفر به في ملك شمال الشام. وطه حسين يرجح أن المتنبي قد أصلح أمره مع المصريين، وترك حلب، على أن يكون شاعراً رسمياً لكافور؛ ليغيظ سيف الدولة وأصحابه، وليعرّفهم أنه إن لم يجد عندهم الأمن والرضا، فسيجد عند عدوهم أكثر من الأمن والرضا، سيجد الحكم والجاه والسلطان [2].

وطمع المصريون في تحويل المتنبي إليهم ليضعفوا خصمهم، وليستأثروا ممن دونه بسلاح من أمضى أسلحته، وهو سلاح الدعوة والإذاعة، فأغروا المتنبي وأطمعوه، فظن أن القوم يصدقونه، وأنهم يريدون به الخير، ولا يريدون أن ينتزعوه من يد مولاه الحمداني. فاستجاب لهم وأسرع إليهم وانتظر تحقيق الوعد، وتصديق الرجاء، فلم يجد إلا سراباً، لا يروي من ظمأ، ولا يشفي من أرام [3].

---

(1) المازني، إبراهيم: **حصاد الهشيم**، (د، ط)، القاهرة : دار المعارف، 1924، ص164.

(2) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص277.

(3) المصدر نفسه، ص282.

واستقبل المتنبي مصر بنفس يسيطر عليها الحزن، واليأس بعد أن فقد كل ما كان يعينه في حلب، وحاول أن يستجدي عطف كافور بما يعوضه عن عظيم ما فقده، في استجداء حزين، لا نكاد نرى فيه نفحة الابتهاج التي كانت تسيطر على مدائحه لسيف الدولة، وإنما هو استجداء من يحاول إنقاذ ما تبقى من ماء وجهه، بالإلحاح الذي يكشف في الوقت نفسه عن المعاناة النفسية الهائلة، وهو يذبح نفسه أمام من لا يستحق [1]، يقول:

وفي النّفسِ حاجاتٌ وفيكَ فطانـــةٌ　　　ســـكوتِي بيـــانٌ عنـــدَها وخطـــابُ　　(الطويل)

إذا نلتُ منكَ الوُدَّ فالمـــالُ هَـــيِّنُ　　　وكلُّ الذي فوقَ التّـــرابِ تـــرابُ[2]

وما كان كافور ليملأ عين المتنبي، بيد أنه مجبر على مدحه، قادر على أن يستر ضعف عاطفته بقوة فنه. وها هو يصور الخيل وقد جدّت ليل نهار تجاذب فرسان الصباح أعنتها مسرعة نحو كافور، ومع ذلك فإنَّ المتنبي يراها بطيئة، ويحس قلبه راكضاً في صدره كأنما يريد أن يسبقها لشدة الشوق ولا عجب، فهو يقصد إنسان عين زمانه، وبحراً من العطاء الدافق الذي جمع فيه كل المعاني، يقول:

قواصدَ كـــافُورٍ تـــوارِكَ غَيْـــرِهِ　　　ومَن قَصَدَ البحرَ اســـتقلَّ السَّـــواقيا [3]　　(الطويل)

وما أبرعه في تكنية كافور بسواد العين، وهو أشرف وأثمن ما فيها، يقول:

فجاءَتْ بِنا إنسانَ عـــينِ زمانِـــهِ　　　وخلَّـــتْ بياضـــاً خَلْفَهـــا ومآقِيـــا[4]　　(الطويل)

---

(1) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح وتطورها الفني**، ص105.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\198 – 200.

(3) المصدر نفسه، 4\287.

(4) المصدر نفسه، 4\287.

والمتنبي بذكائه يعرف ما يرضي ممدوحه تماماً، فيهجم عليه فوراً، لكي يسد أمامه المنافذ جميعها؛ باسمه أو كنيته، فكأنه بذكر الاسم، أو اللقب، أو القبيلة يخصّ هذا الإنسان فقط بهذه الصفات، مع أنها تكون قد قتلت تداولاً قبله [1].

فالمسك الذي يكنى به كافور ليس المسك المعروف، وإنما طيب الثناء والذكر الجميل الحسن، وكافور لا يفخر ولا يهتم بالمسك الذي يستميل النساء، وإنما بالعلياء، يقول:

وبمسكٍ يُكنى بِهِ لَــيْسَ بالمســـْ	ـــــكِ ولكنَّـــهُ أريـــجُ الثَّنـــاءِ	(الخفيف)
لا بما تَبْتَنِي الحواضرُ في الرّيـــ	ـــفِ وما يُطبّي قلــوبَ النّســاءِ[2]	

وأبو المسك (كافور) بحر كثير العطاء، وكل الثناء لا يجزيه حقه، يقول:

وبَحرٌ أبو المسكِ الخِضَمُّ الّذي لَهُ	على كـــلّ بحـــرٍ زَخْـــرَةٌ وعُبـــابُ	(الطويل)
تجاوَزَ قَدْرَ المــدحِ حتـــى كأنّـــهُ	بأحْسَنِ ما يُثْنَـــى عَلَيْـــهِ يُعـــابُ[3]	

وقد يستغرب المتلقي من هذا الموقف غير المتوقع من المتنبي العربي الأبي، الذي كان ينظر إلى الملوك العجم نظرة احتقار، ويرى فيهم أسباب انحطاط الإمبراطورية الإسلامية، إن المتنبي وإن مدح كافور وغيره من الأعاجم، فإنه لم يخلص في مدحهم، ولم يمدحهم إلا لغاية كما أسلفنا، فاتخذ من شعره وسيلة لتحقيق ما تصبو إليه نفسه، ولو على مضض " فالغاية تبرر الوسيلة " في بعض الأحيان.

---

(1) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ط1، الإسكندرية: دار المعارف، 1983، ص323-324.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\34.

(3) المصدر نفسه، 1\194.

ويمضي المتنبي في مدح كافور، فهو الكريم والشجاع، وصاحب المنظر البهي واف بالعهد والقول، والملوك البيض طالما تمنّوا تبديل ألوانهم بلونه، يقول:

كـــرمٌ فـــي شـــجاعةٍ وذكـــاءٌ فـــي بهـــاءٍ وقُـــدرةٌ فـــي وَفـــاءِ (الخفيف)
مَنْ لبيضِ الملوكِ أن تُبْدِلَ اللَّـــوْ ـــنَ بلـــونِ الأســـتاذِ والسَّـــحْناءِ[1]

وسواد كافور مشرق ومنير بضياء المجد والشهرة، نقي من كل ما يعاب، فليس من المهم بياض الثوب، والقباء مقارنة مع بياض النفس التي يتحلى بها كافور، يقول:

إنّ في ثوبكَ الّذي المجـدُ فِيـــهِ لَضــــياءً يُـــــزرِي بِكــــلّ ضِــــياءِ (الخفيف)
إنَّما الجلدُ مَلْبَسٌ وابيضاضُ النّفــ ـــسِ خيرٌ مـــن ابيضـــاضِ القبـــاءِ[2]

والمتنبي لم يخرج في مدحه لكافور عن حدود الدائرة التي عاش في إطارها الشعراء في مدح ممدوحيهم ، ذلك أنه نزع فيه إلى المبالغات والتهويل والإطلاق والتعميم [3].

وصيت كافور ذاع في الآفاق، والمتنبي يحبه كل الحب، ويخشى من عدم حب كافور له، ففي هذا الشقاوة كلها، ويتمنى أن يبادله المشاعر نفسها، يقول:

يا أيُّها الملكُ الغـــاني بتســـميةٍ في الشرقِ والغربِ عن وصفٍ وتلقيبِ (البسيط)
أنتَ الحبيبُ ولكنّي أعوذُ بِـــهِ مِنْ أن أكون مُحبّـــاً غيـــرَ محبـــوبِ[4]

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\35.
(2) المصدر نفسه، 1\35.
(3) خليف، مي: **ميمية المتنبي (مجالات الإبداع وطبيعة المعالجة)**، (د، ط)، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، (د، ت)، ص11.
(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\176.

وكان المتنبي في مديحه لكافور يكثر من الصفات المجردة، ويرصفها رصفاً دون حرارة ولا عاطفة، فهو يريد إرضاءه لنيل ما يريد منه [1].

وكافور طبع على الحلم والأدب قبل أن يكتهل، وترعرع وشبّ مجرباً قبل أن يجرب، لما طبع عليه من الفهم؛ وشبّ مهذباً قبل أن يهذّب، لما طبع عليه من الكرم، يقول:

ترعرعَ الملكُ الأستاذُ مُكتهلاً قبلَ اكتِهال أَديباً قبلَ تأديبِ (البسيط)
مجرّباً فَهِماً من قبلِ تَجربةٍ مهذّباً كَرَماً مِنْ قبلِ تهذيبِ[2]

ويستأنف مدحه لكافور، فهو أخو الجود والكرم، وغيوث يديه عوضت المتنبي عن قلة المطر في مصر، يقول:

قالوا هجرتَ إليهِ الغيثَ قلتُ لَهُمْ إلى غُيوثِ يَدَيْهِ والشّآبيبِ (البسيط)
إلى الّذي تَهَبُ الدّولاتِ رَاحتُهُ ولا يَمُنُّ على آثارِ موهوبِ[3]

وعلى الأرجح أنه يعرض في هذه الأبيات بسيف الدولة الذي لم يحقق له كل ما تمنّى.

ونزهة كافور تكمن في الخيل والرماح، وهو لا يفخر بما يبنى من الطين والحجر، وإنما يفخر بالعلياء، يقول:

وبَساتينُكَ الجيادُ وما تَحْـ ـمل من سمهريّةٍ سَمراءِ (الخفيف)

---

(1) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص337.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\170-171.

(3) المصدر نفسه، 1\173.

وإِنَّمَا يفخَرُ الكريمُ أبــو المســــ ـــكِ بمَــا يَبْتنِــي مــن العليــاءِ[1]

وكافور أرفع قدرا من أن يرضى بمكان، فالبلاد كلها ملك له، يقول:

أنــــتَ أعْلَـــى مِحلَّـــةً أن تُهَنَّـــى بمكانٍ في الأرضِ أو في السَّماءِ (الخفيف)
ولكَ الناسُ والبِلادُ ومَـــا يَسْـــ ـــرَحُ بـــينَ الغبـــراءِ والخضـــراءِ [2]

فنرى صفات متعددة في مدحه لكافور، كأنه يريد من خلالها أن يبعث في نفسه السرور بما يقدم إليه من صنوف المدح، ثم يطالبه فوراً بما يريده منه عسى أن تؤتي هذه الصفات المتتابعة أكلها، ولكن كافور كان أخبث من أن يخدع بمثل ذلك، فوقف موقفاً وسطاً؛ لا هو يعطي المتنبي ما يريد، ولا هو يصرح له بذلك ويرفضه، بل يعطيه الهدايا ويطلب منه المديح، ويبتسم له وفي الوقت نفسه يبث عليه العيون، ويمنعه من مغادرة البلاد، وقابل المتنبي هذا الموقف بالتجمل والصبر، ووقف موقف المادح والهاجي معاً، فأعطاه نوعاً من القريض لا هو بالمدح الخالص، ولا بالهجاء الصريح[3].

والخيل تسرع برجل ماضٍ في أموره، ليس مذهبه وهمه إلا جمع المعالي، ولا يقنع بالملبوس والمأكول، وإذا نظر إلى النجوم نظر إليها بعين من يطمع في إدراكها حتّى كأنها شيء سلب منه، وعطاء كافور قريب من الناس جميعهم، يقول:

تَهـــوِي بمنجـــردٍ لَيْسَـــتْ مذاهِبُـــهُ لِلُـــبْسِ ثـــوبٍ ومَـــأكولٍ ومشـــروبِ (البسيط)
يرمي النُّجومَ بِعَيْنَيْ مَـــنْ يحاوِلُهَـــا كأَنَّهـــا سَـــلَب فـــي عـــينِ مســـلوبِ

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\33.

(2) المصدر نفسه، 1\33 ، الغبراء: الأرض. والخضراء: السماء.

(3) انظر عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص323-324.

حتى وَصلتُ إلـــى نفـــسٍ محجَّبَـــةٍ   تَلقَى النُّفوسَ بفضلٍ غير مَحجـــوبِ[1]

وكافور ذكي، وإذا نظر إلى أفعال الناس ضحك منها تعجباً وهزؤاً، يقول:

في جسمٍ أروعَ صافي العقلِ يُضْحِكُه   خلائِقُ النّاسِ إضحاكَ الأعاجيـــبِ[2] (البسيط)

وهو في حالتي الرضا والغضب أفعاله مملوءة حكمة وعقلاً ونادرة. وسيف كافور يعمل بكفه لا بنفسه، يقول:

فَتى يملأُ الأفعـــالَ رأيـــاً وحكمـــةً   ونـــادرةً أَيَّـــانَ يرضَـــى ويغضَـــبُ (الطويل)
إذا ضَرَبَتْ بالسَّيف في الحربِ كفُّـــهُ   تبيَّنْتَ أَنَّ السيفَ بـــالكَفِّ يَضْـــرِبُ[3]

لم يخرج المتنبي عن المألوف في مدح كافور، ولم يأت بشيء جديد، وإنما بالغ في وصف جوده وذكائه، وعزمه ومضائه، وبأسه وعصاميته، وهي معان استهلكها الشعراء جميعهم رغم أن المتنبي يؤديها أداء حسناً، لا مشقة فيها ولا جهد ولا عناء [4].

إن المتنبي عمد إلى المعاني والأساليب القديمة فعلاً، إلا أنه استطاع أن يضفي عليها لباساً بهياً عاد بها إلى نضارتها، وسكب من شخصيته وعبقريته روحاً وحياة ودفئاً [5].

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\174-175.
(2) المصدر نفسه، 1\175.
(3) المصدر نفسه، 1\182.
(4) الطبال، أحمد: **المتنبي دراسة نصوص من شعره**، ص54.
(5) فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص615.

وربما كان من الغريب أن نجد المتنبي شاعر مديح، بعد أن عهدنا تعاليه على الناس، واعتداده بنفسه، وازدراءه الملوك. والأغرب من ذلك أنه أضحى لا يطرق فناً، إلا من خلال هذا الطريق.

ففي كنف سيف الدولة اتحدت الذات الواقعية للمتنبي بالذات المثالية بالشعر المبدع، فعاش المتنبي واقعه مثالاً عبر عنه بشعره. وحين قدم إلى كافور فقد الواقع المثال. وكان المتنبي حين يرضي الممدوح يرضي ذاته وتطلعاته المتجسدة في الممدوح. أما وقد ترك المتنبي سيف الدولة، فهو حين يرضي الممدوح لا يرضي مثله العليا. بل يرضي كافور فقط لغايته المعروفة، وهي الحصول على ولاية وحكم [1]. فعطايا كافور قادمة لا محالة، يقول:

تزيدُ عطايـــاهُ علـــى اللَّبْـــثِ كثــرةً   وتَلْبَـــثُ أمـــوَاهُ السَّـــماءِ فتنضُـــبُ (الطويل)

أبَا المسكِ هل فِي الكأسِ فضلٌ أنالُهُ   فإنّي أُغَنّي مُنــذُ حِــينٍ وتَشْــرَبُ[2]

ولم يجد المتنبي في هذا الحاكم ما وجده في سابقه (سيف الدولة)، فهذا أعجمي وذاك عربي، والمتنبي يمجد العروبة، فنحن هنا أمام شاعر يمدح وهو يمقت، ويثني وهو يكره، فهناك محرك يعتمل في نفس المتنبي وراء ما يقوله من ألفاظ وعبارات في كافور، يظل يكتمه ويخفيه ولكنه يظهر من حين لآخر [3].

ويستأنف مديحه لكافور مبيناً عظمته، فالمجردات تحسب له ألف حساب، حتى أن الريح إذا هبّت في غير بلاده هبت غير مستوية، فإذا أتت بلاده استوت إعظاماً له، يقول:

---

(1) الطبال، أحمد: **المتنبي دراسة نصوص من شعره**، ص54.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\182.

(3) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص335.

إذا أَتَتْها الرّياحُ النُّكْـبُ مِـنْ بلـدٍ فمـا تَهُـبُّ بِهـا إلا بترتيـبِ (البسيط)

ولا تجاوِزُهَـا شـمْسٌ إذا شَـرَقَتْ إلا ومنـهُ لهـا إذنٌ بتغريـبِ[1]

فالمتنبي كان يفرط في مدح الممدوح، حتى يسرع في تحقيق مطالبه، إلا أنه لم يجد عند أصحاب الجاه والسلطان كل ما تمناه، فطموحه أصبح أكبر من الحصول على مكافأة مادية، فهو يحلم بملك أو ولاية، وبدأ يخيب ظنّه حين سوّف كافور بطلبه وماطل.

وبالرغم من ذلك استأنف مدحه له، فلو كانت النجوم دياراً لكافور بدلاً من الأبنية لكانت قليلة عليه؛ لعلو شرفه وقدره، يقول:

مسـتقِلٌ لَـكَ الـدّيار لـو كـا نَ نجومـاً آجُـرُّ هـذا البِنـاءِ (الخفيف)

ولوْ أَنَّ الّـذي يَخِـرُّ مِـنَ الأمْـ ـوَاهِ فيهـا مِـنْ فِضَّـةٍ بيضَـاءِ[2]

وكافور بملكه أصاب نهاية الدنيا ومع ذلك، فإن همته عالية لا تقنع بأي شيء، يقول:

حتّى أصـابَ مـن الـدُّنيَا نِهايَتَهـا وهَمُّـهُ فـي ابتـداءاتٍ وتَشْـبيبِ (البسيط)

يُدَبِّرُ المُلْكَ من مصـرٍ إلـى عَـدَنٍ إلى العراقِ فأرضِ الرُّومِ فـالنوبِ [3]

والمتنبي يمدح كافور شاء أم أبى، فهو لا يحتاج إلى جلب معنى أو منقبة إليه؛ لأن أخلاقه وصفاته تعينه على ذلك. وهو عنده كأنه بين أهله لا يشعر بالغربة قط، يقول:

وأخلاقُ كـافورٍ إذا شـئتُ مَدْحَـهُ وإن لم أشـأْ تُمْلِـي عَلَـيَّ وأَكْتُـبُ (الطويل)

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\171.

(2) المصدر نفسه، 1\32

(3) المصدر نفسه، 1\171.

إذَا تَــرَكَ الإنســانُ أهــلاً وَرَاءَهُ   وَيَمَّـمَ كـافوراً فمـا يَتَغَـرَّبُ [1]

وهذه المدائح على عظمتها لم تمكّن المتنبي من تحقيق أحلامه لدى كافور، ووفق كافور لكل ما أراد، فكافور كان عاقلاً فطناً لبيباً، لم يخدعه المتنبي، وما كان للمتنبي، ولا لأبرع منه أن يخدع هذا الأسود الذميم الذي استطاع أن يتجاوز قدره، وأن يفرض نفسه على الدولة الإسلامية كلها، وأن يقتطع أحسن أجزائها، فيستأثر بالملك والسلطان. وكافور كان فطناً لدرجة أنه كان يحسن العلم بالناس، ويضع الأمور في مواضعها [2].

ويستأنف مدحه لكافور متحلياً بالصبر والجلد، آملاً في تحقيق آماله في القريب العاجل، فكافور وفيّ، وإن تأخر في تحقيق مطالبه، فهو لم يتأخر في ذلك إلا ليختبر محبة المتنبي له على حدّ تعبيره، يقول:

عندَ الهُمامِ أبي المِسكِ الذي غرقَـتْ   في جُودِهِ مُضَـرُ الحمْـرَاءِ والـيَمَنُ (البسيط)

هـو الـوَفيُّ ولكنّـي ذكـرتُ لَـهُ   مـودَّةً فهـو يَبلُوهـا ويَمْـتَحِنُ [3]

والمتنبي يؤثر كافور على أهله، بالرغم من شوقه إليهم، فكيف لا وقد وجد لديه العز والجميل؟! يقول:

أَحِنُّ إلى أَهْلِـي وأَهْـوَى لقـاءَهُمْ   وأَيْنَ مِنَ المُشْـتاقِ عَنقـاءُ مغـرِبُ (الطويل)

فإِنْ لم يكُنْ إلا أبـو المسـكِ أَوْهُـمُ   فإنَّكَ أَحْلَـى فـي فُـؤادي وأعـذَبُ

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\181.

(2) حسين، طه: **مع المتنبي**، 287.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\238-239.

وكُلُّ امرئٍ يُولِي الجَميــلَ مُحَبَّــبٌ   وكُلُّ مكــانٍ يُنبِــتُ العِــزَّ طَيِّــبُ[1]

فمعاني مدحه في كافور كما رأينا هي التي تعودنا سماعها عند الشعراء المداحين من كرم وشجاعة، وسعة وإدراك، وقوة وحزم، وحسن تدبير، وفتك شديد بالأعداء، وما إلى ذلك. وقد نصادف هذه الأوصاف أكثر قوة ولمعاناً في تاريخ بعض الممدوحين، كسيف الدولة الذي تحلّى بالسخاء والشجاعة وروعة الانتصارات، حتى كانت انتصاراته مواضيع فخر، لحسن بلاء سيف الدولة فيها، بيد أن المتنبي رجل قوي نزوع إلى القوة، محب للمال، تلتصق شخصيته بشعره، فإذا مدح أملت عليه هاتان النزعتان معانيه، فأتى مدحه عاماً، لا يصور ممدوحاً خاصاً، بل ممدوحاً مثالياً له من الصفات ما يلائم القوة والسخاء، ويرضي مخيلة الشعراء، وقلبه الحديدي، وإعجابه بالمثال العربي الأسمى [2].

ويستأنف مديحه قائلاً: إنّ كافور أخذ البلاد بسيفه من شدة شجاعته، وإليه تنسب المكرمات جميعها؛ مما يغنيه عن النسب:

شللتَ سيوفاً علَّمَــتْ كــلَّ خاطــبٍ   على كلّ عودٍ كيفَ يــدعُو ويخطُــبُ (الطويل)

ويُغنيكَ عمَّــا يَنْسُــبُ النَّــاسُ أنَّــهُ   إليــكَ تَنَــاهَى المكرُمــاتُ وتُنْسَــبُ

وأيُّ قبيــــلٍ يســــتحقُّكَ قَــــدْرُهُ   مَعَدُّ بنُ عــدنانٍ فــداكَ ويعــرُبُ [3]

إن كرم كافور ليس له حدود، والمتنبي لا يطمع بكرمه بقدر ما يطمع بشرفه، فهو يسعد المنحوس، ويغني الفقير، والناس تفضله على الكواكب، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان،** 1\183. عنقاء مغرب: كانت طائراً عظيماً اختطفت صبياً وجارية وطارت بهما، فدعا عليها حنظلة بن صفوان، وكان نبي ذلك الزمان، فغابت إلى اليوم.

(2) فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي،** ص613.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان،** 1\186.

وإنّي لَفي بحرٍ مِــنَ الخيــرِ أصــلُهُ عَطاياكَ أرجُــو مَــدَّها وَهــي مَــدَّهُ (الطويل)

وما رَغْبَتِي فــي عســجدٍ أســتفيدُهُ ولكنَّهَــا فـــي مفخــرٍ أســتجدُّهُ

يجـــودُ بـــه مَـــن يفضَـــحُ جُـــودُهُ ويَحْمَدُهُ من يفضَـــحُ الحمــدَ حمــدُهُ

فإنَّكَ مــا مَــرَّ النَّحُــوسُ بِكوْكَــبٍ وقابَتَـــهُ إلا ووجهُـــكَ سَـــعدُهُ [1]

وأبو المسك كثير العفو لا يعرف الحقد، وينال ما يريده بالجدّ والسعي، يقول:

أبو المسكِ لا يَفْنَــى بــذنبكَ عَفــوُهُ ولكنَّـــهُ يَفْنـــى بعـــذرِكَ حِقــدُهُ (الطويل)

فيا أيُّهــا المنصــورُ بالجَــدّ سَــعيُه ويا أيّها المنصورُ بالسَّــعِي جَــدُّهُ [2]

وهو لا ينقاد لأحد، ويدفع الأذى حتى عن الدهر، ويتحلّى بالمكارم كلها، فهو عالم بتدبير الحروب، وحازم في رأيه، وبطل وكريم، والناس جميعاً قصروا عن اللحاق به، لما فيه من خصال محمودة، يقول:

يزحَمُ الــدَّهرَ رُكنُهَــا عــن أذاهــا بفتـــى مــــاردٍ مِـــنَ المُـــرادِ (الخفيف)

متلـــفٍ مخلـــفٍ وفـــيٍّ أبـــيٍّ عــــالمٍ حـــازمٍ شـــجاعٍ جـــوادِ

أجفلَ الناسُ عَنْ طريقِ أبي المِسْـــ ـــكِ وذَلَّــتْ لَــهُ رِقــابُ العبــادِ

كيــف لا يُتْــرَكُ الطّريــقُ لسـيلٍ ضَــيّقٍ عــن أتِيِّــهِ كــلُّ وادِ [3]

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان** ، 2\30.

(2) المصدر نفسه، 2\26.

(3) المصدر نفسه، 2\37-38.

ولا تخلو مدائح المتنبي من تعبيرات معقدة، ومبالغ فيها إلا أن هذه المآخذ قليلة إلى جانب ما في مدائح المتنبي من معاني قيمة [1].

وكافور يفعل المكرمات ابتداعاً واختراعاً، ويحسن إلى البغاة بلطفه، ولطالما تمنى المتنبي رؤية وجه كافور قبل أن يراه، يقول:

تَرَفَّعَ عن عونِ المكارمِ قَدْرُهُ ... فما يفعلُ الفَعلاتِ إلا عَذَاريا (الطويل)
يُبيدُ عداواتِ البُغَاةِ بِلُطْفِهِ ... فإنْ لمْ تَبِدْ منهم أبَاد الأعادِيا
أبا المسكِ ذا الوَجهُ الذي كنتُ تائِقاً ... إليهِ وذَا الوقتُ الذي كنتُ راجِيا[2]

والمتنبي حمل هواه ونصحه وشعره، وزار جواداً كالبحر، ويقصد كافور، يقول:

ولكنَّ بالفُسطاطِ بحراً أَزَرتُهُ ... حَياتي وَنُصحي والهَوَى والقَوَافيا[3] (الطويل)

ومدائح المتنبي في كافور كانت تصلح للمدح والهجاء، فهو صاحب عبقرية فذة أسعفته لأن يبرع ويجيد في هذا الأسلوب، فكان مدحه بوجهين، فتظهر له أبيات أقرب للهجاء من المدح، ممّا يحمل على الاعتقاد بأن المتنبي تعمّد ذلك تعمداً، فجاء بشعر يحتمل المدح والذم [4].

فشعره في كافور هو شعر من وجه، ورقية من وجه آخر، فقد كان يرقيه ليأخذ ماله، حيث استخرج ماله بهذه الحيلة. ومديحه لم يكن إلا من باب الهجاء كما قال:

---

(1) فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص614.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\288-289.

(3) المصدر نفسه، 4\285.

(4) الهاشم، جوزف: **أبو الطيب (شاعر الطموح والعنفوان)**، ص46.

وَشِـــعرٍ مـــدحتُ بـــه الكركَـــدَنَّ   بـــينَ القـــريضِ وبـــينَ الرُّقَـــى (المتقارب)
فمـــا كـــان ذلـــك مـــدحاً لـــه   ولكنـــه كـــان هجـــو الـــورى[1]

وممّا قاله من هذا القبيل :

يفضحُ الشّمسَ كُلَّمـا ذَرَّتِ الشَّمْـــــ   ــــسُ بِشَـــمْسٍ مُنيـــرةٍ سَـــوْداءِ (الخفيف)
يا رجاءَ العيـونِ فـي كُـلّ أرضٍ   لم يَكُـنْ غيـرَ أَنْ أراكَ رَجـائِي[2]

إن مجرد التفكير بالشمس السوداء التي تفضح شمس الظهيرة، أو بهذه العيون التي يتوقف رجاؤها وأمانيها من الحياة على الاكتحال بوجه أبي المسك، إن مجرد التفكير في هذه الأمور يبعث البسمة على وجه المتلقي، فتلك الأبيات تنم عن مديح مبطن لا يحمل في طياته أي معاني التقدير، والاحترام من قبل المتنبي تجاه هذا الأعجمي الذي كان يقف في حلق المتنبي كالشوكة.

ونقل بعض الشراح على لسان ابن جني أن المتنبي قال له: "ولو شئت لقلبت الكافوريات كلها إلى الهجو"، ثم إنه ابتدع فيه اصطلاحاً جديداً ألا وهو "أبو المسك" يكنى به عن سواده ونتن رائحته، من باب تسمية الشيء باسم ضده، كالمفازة والسليم [3].

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\43-44. الكركدن: الحمار الهندي.
(2) المصدر نفسه، 1\34-36.
(3) الرومي، عبد الرحمن: **رسالة في قلب كافوريات المتنبي من المديح إلى الهجاء**، تحقيق: محمد نجم، ط2، بيروت، دار صادر، (د، ت)، ص5.

فكان مديحه ينطوي على ألفاظ عدة تحتمل أن تصرف إلى الهجاء خبثاً واقتداراً [1]. ومن ذلك قوله: إن كافور ليس بحاجة إلى السلاح عند مقاتلة الأعداء، فالجن والإنس وحوادث الزمان يقاتلون عنه:

قَضَى اللهُ يا كافورُ أنَّكَ أوَّلٌ   وليسَ بقاضٍ أن يُرَى لكَ ثَانِي **(الطويل)**

فَمَا لكَ تختارُ القِسِيَّ وإنَّما   عن السَّعدِ يرمي دونَكَ الثَّقلانِ

ومَالكَ تُعْنَى بالأسِنَّةِ وَالقَنَا   وجدُّكَ طَعَّانٌ بغيرِ سِنانِ

ولم تحمِلِ السَّيفَ الطَّويلَ نجادُهُ   وأنتَ غنيّ عنهُ بالحدثانِ [2]

ثم يقول مدعياً شجاعته:

وما عَدِمَ اللاقوكَ بأساً وشدّةً   ولكنَّ مَنْ لاقوا أشدُّ وأنجَبُ [3] **(الطويل)**

البيت في ظاهره يؤكد شجاعة كافور، فالذين صادموه كانوا جبناء وضعفاء، لكن في باطنه تأكيد مهارته في الهرب والفرار.

فلم يمدح المتنبي كافور، إلا طمعاً في نواله إذن، وله فيه أبيات مزج فيها التهكم الخفي بالمدح، والعتاب بالملاطفة، والذم بالثناء [4].

---

(1) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص339.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، ج4، ص246-247.

(3) المصدر نفسه، 1\185.

(4) فاخوري، حنا: **تاريخ الدب العربي**، ص615.

وكفى بهذا البيت دليلاً على ظرف تهكمه، وإحكام فنه، يقول:

ومــا طربــي لمّــا رأيتــكَ بدعــةً لقد كنتُ أرجو أن أراكَ فــأطرَبُ[1] (الطويل)

ومن الأعاجم المسلمين الذين مدحهم المتنبي شخص يدعى "أبو محمد بن طغج" فقد مدحه ببعض الأبيات التي لا تكاد تذكر في الديوان، فهو أهدى الناس إلى فعل المكارم والفضائل، يقول:

مــالَ علــى الشَّــرَابُ جِــدّاً وأنْــتَ بالمكرُمــاتِ أَهْــدَى[2] (مجزوء البسيط)

وأبو محمد بن طغج لا يستقبل الحرب، إلا بهمة مرفوعة عن الدنايا، وهو كريم، وبكرمه هذا استقطب المتنبي حتى إنه استغنى عن غيره، يقول:

ولا يَتَلقــى الحــربَ إلا بمهجــةٍ معظَّمَــةٍ مــذخورةٍ للعظــائمِ (الطويل)
كريمٌ نَفَضْــتُ النــاسَ لمَّــا بَلَغْتُــهُ كأنهم ما جــفَّ مــن زادِ قــادمِ[3]

وقال يمدحه، وهو يحمل البخور باتجاهه:

يــا أكــرَمَ النَّــاسِ فــي الفَعــالِ وأفصَــحَ النَّــاسِ فــي المقــالِ (البسيط)
إن قلــتَ فــي ذا البخُــورِ: ســوْقا فهكَــذَا قلــتَ فــي النَّــوالِ[4]

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\186.
(2) المصدر نفسه، 2\12.
(3) المصدر نفسه، 4\113-117.
(4) المصدر نفسه، 3\263.

فهو أكرم الناس وأفصحهم، وإن أشار بالبخور إلى المتنبي، فهكذا يفعل في العطاء له، وإذا أقبل الليل، فإن نور وجه ابن طغج يوهم ببقاء النهار، ونوره كالبستان الذي يحيط بهما، يقول:

زالَ النَّهارُ ونـــورٌ مِنــكَ يُوهِمنـــا   أنْ لمْ يَزَلْ وَلجُــنْحِ اللَّيــلِ إجنـــانُ   (البسيط)

فإن يَكُنْ طلــبُ البســتانِ يمســكنا   فَرُحْ فكلُّ مكــانٍ منــكَ بســتانُ[1]

ومن الواضح أن المتنبي لم يطرق باب ابن طغج، إلا طمعاً في نواله ومكرماته، فهو لم يلمح إلى هذا تلميحاً بل صرح به، ويتضح هذا من خلال الأبيات القليلة السابقة.

ثانياً: الآخر الأعجمي المسلم المهجو:

لقد علمنا أن المتنبي عربي، ويعتز بكل عربي أبي، ويحتقر كل أعجمي ككافور، وابن خالويه [2].

يقول متغنياً بالعرب:

تهابُ سيوفُ الهنـــدِ وهـــيَ حدائـــدٌ   فكيفَ إذا كانَتْ نزارِيَّـــةً عُرْبَـــا[3]   (الطويل)

واتضح لنا أنه لم يقدم على مدح الأعاجم إلا لغاية، وبخاصة مديح كافور، وقد ألح المتنبي في طلب ولاية منه، أو ضيعة، ووعده بذلك؛ إلا إنه أخلف الوعد، فشرع المتنبي يشكو

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\232.

(2) عبد الجابر، سعود: **الشعر في رحاب سيف الدولة**، ص70.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\61.

إخلاف الوعد، ثم انتهى بعد طول انتظار إلى اليأس المطلق، وخيبة الأمل حتى أنه أقام سنة كاملة في مصر دون أن يراه، وأن ينشده [1].

فالمتنبي عندما مدح كافور مدحه وتكلّف، ولقد استغل المدح وجاد به مع غير عظيم أو كبير، وكان أن صنعه حيناً، وتدفق به حيناً، فأبدعه رائعاً كما حدث مع سيف الدولة، وجامل به كافور، وأمراء آخرين لم يعجبوه في المجد والعظمة، فقد مدح الأمير الحمداني بوجدانية، وأعطى من التكلف والصناعة والدهاء مع كافور الإخشيدي [2].

فلم يصدح المتنبي ويغني لكافور إذن، إلا من أجل المال والملك، وطمع كافور بمدح المتنبي له، ولكنه لم يرد له أن ينافسه أو يحل مكانه، فما جاد عليه بملك أو ولاية [3].

وعندما سأل المتنبي كافور أن يوليه صيداء من بلاد الشام، أو غيرها من بلاد الصعيد قال له كافور: "أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك إلى النبوة، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك؟ " [4].

فالمعروف المتواتر من أخبار المتنبي أنه لقي كثيراً من العنت والمشقة، وهو يجوب حواضر الشام وغيرها يمتهن المدح، حتى إذا حصل على شيء من الشهرة، ورغب فيه أصحاب السلطان والجاه، أفرط وأجاد بلوغاً للأماني [5].

---

(1) الطبال، أحمد: **المتنبي دراسة نصوص من شعره**، ص93.

(2) حطيط، كاظم: **دراسات في الأدب العربي**، ط1، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1977، ص118.

(3) المصدر نفسه، ص140.

(4) البديعي يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص112.

(5) الواد، حسين: **المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب**، ط1، الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1991، ص309.

وعندما شعر المتنبي بمكر كافور، وتبَيّن حيله هرب، وهجاه هجاءً ضمّنه كلّ ما في نفسه من مرارة واحتقار.

فيتعجب من المسلمين الذين قبلوا بحكم العبيد، وأراذل الناس الذين ليسوا من جنسهم يقول:

ساداتُ كــلّ أنــاسٍ مــن نفوسِــهِمُ   وسَـــادَةُ المســـلمينَ الأعبُـــدُ القَـــزَمُ   (البسيط)

أغايةُ الـــدّينِ أنْ تُحفُـــوا شـــوارِبكُم   يا أمَّةً ضَحكتْ مِنْ جهلِهَا الأمـــمُ[1]

ما هان المتنبي في طبعه، ولا صغر في أحلامه، فقد فطر على حب الإباء والعظمة، ورفض الهوان والذل، وإن حلم فليس ليضعف، ولكن ليدل على قدرة وتميز، أما إذا شعر بالأذى أو الصغار، فإنه يترك حلمه، ويعطي من لسانه ويهجو [2].

ولكن متى قام المتنبي بهجاء كافور؟ عندما أدرك وتيقن بأنه أخطأ المكان والطريق، ولم يستطع مع مرارة الخيبة، وتجريح الذات أن يداري هذا العبد أكثر مما ينبغي.

وكان هجاء المتنبي لكافور والمصريين مقذعاً مؤلماً، ذلك أن نفسه تألمت في مصر، وكبرياءه تحطمت أمام مليكها، وكان سخطه الثائر ينتظر ساعة الحرية لينفجر تحطيماً وتجريحاً[3].

رأى المتنبي أن السادة غفلوا عن الأراذل الذين عاثوا في أموال الناس حتى شبعوا، ورأى أنّ العبد لا يؤاخى، وإن أظهر الود، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\150.

(2) حطيط، كاظم: **دراسات في الأدب العربي**، ص138.

(3) الهاشم، جوزف: **أبو الطيب (شاعر الطموح والعنفوان)**، ص64.

نامتْ نواطيرُ مصرٍ عـن ثعالِبِهَـا فقد بَشِمْنَ ومـا تَفْنَـى العَناقيـدُ (البسيط)

العبـدُ لـيسَ لِحُـرّ صـالحٍ بـأخٍ لوْ أَنَّهُ فـي ثيـابِ الحُـرِّ مولُـودُ

لا تشترِ العبـدَ إلا والعصـا مَعَـهُ إنَّ العبيـدَ لأنجـاسٌ مناكيـدُ(1)

والذي يجعل من العبد حاكماً على نفسه أحمق من العبد والمرأة، يقول:

أنْـوَكُ مـن عبـدٍ ومـن عِرْسِـهِ ومَـنْ حَكَّـمَ العبـدُ علـى نفسـه (السريع)

وإنَّمَـا يُظهِـرُ تحكيمَـهُ تحكُّـمَ الإفسـادِ فِـي حِسِّـهِ(2)

والمتنبي لم يكن يعلم أن الأجل سيؤخره إلى زمان يسيء إليه فيه شر الخليقة ككافور، وكناه بأبي البيضاء من باب السخرية، يقول:

ما كنتُ أَحْسِبُنِي أبقَـى إلـى زَمَـنٍ يسيءُ بي فِيهِ كلبٌ وهـو مَحْمَـودُ (البسيط)

ولا توهَّمْتُ أنَّ النـاسَ قَـد فُقِـدوا وأَنَّ مثلَ أبي البيضـاءِ موجـودُ(3)

ويغرق المتنبي في هجاء كافور وأصحابه، فهم كذابون فيما يعدون، يمسكون ضيفهم، ولا يمكنونه من الرحيل عنهم، وهم بخلاء يجودون بالمواعيد دون العطاء، فلا كانوا، ولا كان جودهم هؤلاء أصحاب النفوس النتنة التي يستقذرها الموت فيأخذها بعود، يقول:

إنِّـي نزلـتُ بكـذَّابينَ ضَـيْفُهُمُ عن القِرَى وعن التَّرحالِ مَحـدُودُ (البسيط)

جودُ الرِّجالِ من الأيـدي وجـودُهُمُ من اللِّسانِ فلا كـانُوا ولا الجـودُ

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\43.

(2) المصدر نفسه، 2\203.

(3) المصدر نفسه، 2\41-42.

ما يقبِضُ الموتُ نفساً من نفوسِــهِمِ إلا وفي يَدِهِ مــن نَتْنِهَــا عُــودُ[1]

وكافور غدار وخسيس وكذاب، وهو بكل هذه العيوب شخص مخزي، والمتنبي يضحك على نفسه التي لجأت إلى مثله، يقول:

أَمَيْنَـــاً وإخلافـــاً وغـــدراً وخســـةً وَجبناً أشخصاً لحتَ لـــي أم مخازِيـــا (الطويل)

تظنُّ ابتسَـــاماتي رجـــاءً وغبطـــةً وما أنا إلا ضـــاحكٌ مِـــنْ رجائيـــا[2]

فالمتنبي لم يسخط على كافور وحده، بل سخط على نفسه أيضاً، فهو لم يضحك من كافور وحده، بل ضحك مما أناط به من أمل، وما عقد به من رجاء [3].

يقول في هجاء كافور:

أُريكَ الرّضا لو أخفتِ النفس خافيـــا وما أَنا عن نفسِي ولا عنكَ راضـــيا[4] (الطويل)

ولم يكن المتنبي يعلم كما يصرّح أن الأسود العظيم المشافر يستغوي الذين حوله من الجبناء. وكافور جائع ولا يشبع، ويتمسك بالمتنبي حتى يقول الناس عنه عظيم القدر، يقول:

وأنَّ ذا الأسْـــوَدَ المثقُـــوبَ مِشْـــفَرُهُ تطيعُهُ ذِي العضــــارِيطُ الرَّعاديـــدُ (البسيط)

جُوْعانُ يأكلُ مِـــنْ زادي ويُمْسِـــكُنِي لِكَيْ يقالَ عظيمُ القَـــدْرِ مقصُـــودُ[5]

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\41-42.

(2) المصدر نفسه، 4\294. المين: الكذب.

(3) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص330.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، ج4، ص294.

(5) المصدر نفسه، 2\44. العضاريط: الجبناء.

ولم يكن المتنبي ممن يحسنون دغدغة المهجو، والهزء به بطريقة ناعمة، فهو لا يعرف إلا الطعن الجارح البليغ، فيسخط بقوة، ويثور بقوة، ويرمي مهجوه بقوة، من غير تروّ ولا هوادة، ينفث كل حقده حتى لا يترك رجاء لشدة ما يضمر من السخط، وهكذا أسقط كافور إلى الأبد، وألصق باسمه وصمات لم ولن تزيلها الأيام [1].

فكافور كالغراب كثير العيب، ويلمّ حوله خساس الطير، والمتنبي أكره على مدحه، واضطر إلى وصفه بالحلم رغم حماقته ولؤمه، يقول:

كَــأَنَّ الأسْــوَدَ اللابـــيّ فـــيهِمْ غُـــرابٌ حولَـــهُ رَخَـــمٌ وبُـــومُ (الوافر)

أُخِـــذْتُ بمدحِـــهِ فرأيـــتُ لهـــواً مَقـــالِي للأحيمـــقِ يـــا حلـــيمُ

ولمّـــا أن هَجَـــوْتُ رأيـــتُ عِيَّـــا مَقـــالِي لابـــن آوى يـــا لَئـــيمُ[2]

وكافور لو طرق باب المتنبي لتصدق عليه، في حين أنه يبخل عليه ويكذب في وعوده له، يقول:

لـــو كـــانَ ذا الآكـــلُ أزوادَنَـــا ضـــيفاً لاوســـعناهُ إحْسَـــانا (السريع)

لكنَّنَـــا فـــي العَـــيْنِ أضـــيافُهُ يُوسِـــعُنا زُوراً وبهتَانَـــــا[3]

ولم يكن للمتنبي ولع خاص بالهجاء، ولم يكن ميالاً إليه؛ لأن نفسه الكبيرة كانت مشغولة بجو من العظمة بـــعيد عن مثل هذه الملاهي السخيفة لذلك ندر الهجاء في ديوانه، فأتى غضبـــه

---

(1) فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص621.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان** ج4، ص152.

(3) المصدر نفسه، 4\248-249.

عارضاً، فهو لا يغضب إلا عندما يثور [1].

لقد غفل الخويدم (كافور) عن ليل المتنبي الذي خرج من عنده، فهو إنسان جاهل، وشتان بينه وبين المتنبي، يقول:

ونَـــامَ الخويــدُم عــن ليلِنَــا   وقد نــامَ قبــلُ عمــىً لا كَــرَى (المتقارب)
وكـــان علـــى قربِنَـــا بينَنَـــا   مهامِـــهُ مِـــنْ جَهْلِـــهِ والعَمَـــى[2]

ويتعجب المتنبي من هؤلاء الذين يشبهون العبد الأسود بالبدر، فالبدر فيه نور وبهاء، فكيف لكافور أن يشبّه به يقول:

وأســـودُ مِشْـــفَرُهُ نِصْـــفُه   يُقالُ لَـــهُ أنــتَ بــدرُ الــدُّجَى[3] (المتقارب)

وقلّما قرأنا قصيدة في هجاء كافور دون أن نلمس فيها سبب نقمة الشاعر عليه، ولو تلميحا.

فالخير لا يرجى عند عبد رأى الهوان والذلّ، فالعبيد جميعهم يعرفون من قلة المروءة والكرم، وكافور طبع على البخل منذ الولادة، ومن كان لئيماً في كبره كان لئيماً عند ولادته، والأشياء ترجع إلى أصولها، فمن أوتي ملكاً، وقدره لا يستحق، لم يرفعه ذلك عن لؤم الأصل، ولو أوتي مال قارون، يقول:

فَــلا تُــرَجّ الخيــرَ عنــدَ امــرئٍ   مرَّتْ يَــدُ النَّخَّــاسِ فِــي رأسِــهِ (السريع)

---

(1) فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص620.
(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\42-43.
(3) المصدر نفسه، 1\43.

وإنْ عَـــرَاكَ الشَّـــكُّ فِـــي نفسِـــهِ بحالِـــهِ فـــانظُرْ إلـــى جِنْسِـــهِ
فَقَلَّمَـــــا يَلْـــــؤمُ فِـــــي ثوبِـــــهِ إلا الّـــذي يَلْـــؤمُ فـــي غِرْسِـــهِ
مَـــنْ وَجَـــدَ المَـــذْهَبَ عـــن قَـــدْرِهِ لم يجِـــدِ المـــذهَبَ عَـــنْ قِنْسِـــهِ[1]

وبعض الناس يعجبون بكافور لشأنه، ويتغاضون عن عيوبه، وربما يستحسنون ما يستقبحه الآخرون، يقول:

وَمَـــــنْ جَهِلَـــــتْ نَفْسُـــــهُ قَـــــدْرَهُ رأى غيرُهُ منـــه مـــا لا يَـــرَى[2] (المتقارب)

والمتنبي نبغ في الهجاء، واستطاع أن يرقى به من السخف والإقذاع، حيث يجعله أمثالاً سائرة وحكماً تنفع الناس جميعهم[3]، إذ يقول في كافور، وقد طبع على الشح والخسة:

فلا مَجدَ في الدُّنيا لِمَـــنْ قَـــلَّ مالُـــهُ ولا مالَ في الدّنيا لِمَنْ قلَّ مجـــدُهُ[4] (الطويل)

وكافور لا يعرف أهو رجل أم أنثى، فهو مخنث ومجرم، قتل سيده وحكم مصر، يقول:

مِن كلّ رِخْوِ وكاءِ الـــبطنِ منفتـــقٍ لا في الرّجالِ ولا النّسوانِ معـــدودُ (البسيط)
أَكُلَّما اغتـــالَ عَبْـــدُ السُّـــوءِ سَـــيِّدَهُ أو خانَهُ فَلَهُ فِـــي مِصْـــرَ تمهيـــدُ[5]

ويتحول كلام المتنبي إلى سيل من اللعنات ضد كل شيء ضد كافور، وما يمثله من قيم مهترئة، وضد مصر واستكانة أهلها وضعفهم، حتى ملّكوا عليهم مثل كافور، وضد نفسه التي

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\204-205.
(2) المصدر نفسه، 1\44.
(3) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص337.
(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\23.
(5) المصدر نفسه، 2\42.

وافقت في يوم من الأيام أن تسعى إلى كافور طالبة نواله، في زمن عجز فيه الأشراف والأحرار عن فعل الجميل [1].

فنجده يتحدث بكل ثورية، تلك الثورية التي تريد أن تقتلع كل شيء من جذوره، متوعداً بها الجميع حتى ملوك العرب والعجم، يقول:

مِيعادُ كلّ رقيــقِ الشــفرتَينِ غــداً   ومَن عَصَى من مُلوكِ العُرْبِ والعَجَــمِ   (البسيط)
فإنْ أجابُوا فمَا قَصْــدِي بهــا لهُــمُ   وإنْ تَوَلَّوْا فَمــا أرضَــى لَهَــا بِهِــمِ [2]

ومن الأشخاص الأعاجم الذين تناولهم المتنبي في قصائده، شخص يدعى "إسحاق بن كيغلغ" وكان هذا من أشهر مهجويه، وكان قد منع المتنبي عن السفر طمعاً في مدحه إياه، إلا إنه قذفه بأبشع الصور، وأكثرها تهكماً وسخرية.

فجفونه تتحرك باستمرار كأنها مصابة بقذى، أو عصر فيها حصرم، أما صوته كقهقهة القرد، أو لطم النساء، يقول:

وجفونُــــهُ مـــا تســـتقرُّ كأنَّهـــا   مطروفَـــةٌ أو فُـــتَّ فيهـــا حِصْـــرِمُ   (الكامل)
وإذا أشَـــــارَ مُحَــــدّثاً فكأنَّـــــهُ   قـــردٌ يُقَهْقِـــهُ أو عجـــوزٌ تلطِـــمُ [3]

ويستهزئ به مصوراً إياه بأقبح الصور، فهو أعور وقصير، وبلا أصل يأمره المتنبي بالابتعاد عن معاداة الرجال؛ لأنّه لا يقدر عليهم، يقول:

---

(1) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص53.
(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\44.
(3) المصدر نفسه، 4\128.

وارفُــقْ بنفسِــكَ إن خلقــكَ نــاقِصٌ   واســترْ أبــاكَ فــإنَّ أصــلَكَ مُظلــمُ (الكامل)
واحــذر منــاواةَ الرِّجــالِ فإنّمَــا   تَقْوَى علــى كمَــرِ العبيــدِ وتُقْــدِمُ [1]

ويصفه بالبخل والجهل، ويشبهه بالحيوان، يقول:

وغنــاكَ مســألةٌ وطيشُــك نفخــةٌ   ورضــاك فَيْشَــلَةٌ وَرَبُّــكَ درهــمُ (الكامل)
ومِنَ البليَّةِ عــذلُ مــن لا يرعــوِي   عــن غَيِّــهِ وَخطــابُ مــن لا يَفْهــمُ
يَمْشِــي بأربعــةٍ علــى أعقابِــهِ   تحــتَ العُلــوجِ ومــن وَرَاءٍ يلجَــمُ[2]

فالصور تهكمية ساخرة تثير فينا الضحك من ذلك المهجو، والتشبيهات تؤدي الغرض المقصود من هذه الصور، أما هجاؤه لكافور فقلّما نرى فيه صوراً خاصة، فكان يهجوه، وهو يعاني من حالة نفسية معينة، فصوره وإن كان فيها سخرية، وتهكم تنم عن مقت شديد [3].

وقد بلغ المتنبي خبر قتل إسحاق بن كيغلغ على يد غلمانه، فقال في شعره: لا يوجد دواء للأحمق سوى الموت، وحياة ابن كيغلغ ووفاته سواء، فإن مات لا يحزن عليه، وإن عاش فليس له خلق حسن، فمثله لا يعلم إلا الغدر والنفاق، حتى إنه علّم العبد الذي قتله الغدر والكذب فغدر به:

قالوا لَنَا مــاتَ إســحاقُ فقلــتُ لهُــمْ   هذا الدَّواءُ الذي يشــفي مــن الحُمُــقِ (البسيط)
إنْ ماتَ ماتَ بــلا فقــدٍ ولا أســفٍ   أو عاشَ عاشَ بــلا خَلْــقٍ ولا خُلُــقِ
منــهُ تعلَّــمَ عبــدٌ شَــقَّ هامَتَــهُ   خَوْنَ الصَّديقِ ودَسَّ الغدرِ في المَلَــقِ

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\126 .
(2) المصدر نفسه، 4\127 .
(3) عبد الحافظ، صلاح : **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص201.

وحَلْفَ ألــفِ يمــينٍ غيــرَ صـــادقةٍ   مطرودةٍ ككعوبِ الرُّمحِ فـــي نَسَـقِ[1]

والمتنبي يعرف ابن كيغلغ أشدّ المعرفة، فهو في صورة القرد، ولكن بلا ذنب، وأخلاقه سيئة، وهو أحمق وطائش، وصغير القدر نتن الرائحة، يقول:

ما زلتُ أعرفُــهُ قــرداً بــلا ذنــبٍ   صِفراً من البأسِ مملوءاً مــن النَّــزَقِ (البسيط)

كريشـــةٍ بمهــبّ الــرّيحِ ســـاقطةٍ   لا تســتقِرّ علـــى حـــال مـــن القَلَــقِ

تســـتغرِقُ الكَـــفَّ فودَيْـــة ومَنْكَبَـــهُ   وتكتسِي منهُ ريحُ الجــورَبِ العَــرقِ[2]

وابن كيغلغ جبان، ومن المؤكد أنه مات خوفاً وليس قتلاً، وهو قبيح بغير رأس، وبغير عنق لصغر قدره، ولولا ما بينه وبين أهله اللئام من شبه؛ لكان طفلاً خسيس الأصل والنسب، يقول:

فســـائلُوا قاتِليــهِ كيــفَ مـــاتَ لَهُــمْ   موتاً من الضَّرْبِ أو مَوتاً من الفَــرَقِ (البسيط)

وأينَ موقعُ حدّ السَّـيفِ مِــنْ شَــبحٍ   بغيـــرِ رأسٍ ولا جســـمٍ ولا عُنُـــقِ

لولا اللّئــامُ وشَـــيءٌ مِــنْ مشـــابَهَةٍ   لكـــانَ ألأَمَ طفــلٍ لُــفَّ فـــي خِــرَقِ

كـــلامُ أكثـــرِ مَـــنْ تلقَـــى ومنظَـــرُهُ   ممـــا يَشُـــقُّ علـــى الآذانِ والحَــدَقِ[3]

وإسحاق بن كيغلغ يتسلّى بالبكاء عن إهانة من أهانه، وعرضه ليس بجميل ولا يجمّل. وهو ذليل من يوم خلق، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\359.

(2) المصدر نفسه، 2\359-360.

(3) المصدر نفسه، 2\360-361.

وإسحاقُ مــأمونٌ علــى مــن أهانَــهُ ولكـــنْ تســـلَّى بالبكـــاءِ قلـــيلاً (الطويل)
ولـــيسَ جمـــيلاً عِرضُـــهُ فيصـــونُهُ ولـــيسَ جمـــيلاً أن يكـــونَ جَمـــيلا
ويكـــذبُ مـــا أذللتُـــهُ بِهجائـــه لقد كانَ مِـــنْ قبـــل الهجـــاءِ ذلـــيلا[1]

وهوإنسان تعوّد على الصفع، ومن صفاته أيضاً الكلام من غير أفعال، وهو على استعداد لأن يكذب، ويظهر المودة لمن يخافه من شدة ذله، يقول:

يقلـــى مُفارقـــةَ الأكُـــفّ قذالُـــه حتـــى يكـــادَ علـــى يـــدٍ يـــتعَمَّمُ (الكامل)
وتـــراهُ أصـــغَرَ مـــا تـــراهُ ناطقـــاً ويكـــونُ أكـــذبَ مـــا يكـــونُ ويقســـمُ
والـــذُّلُ يُظهـــرُ فـــي الـــذَّليلِ مَـــوَدَّة وأودُّ مِنـــهُ لمـــنْ يَـــوَدُّ الأرقَـــمُ[2]

ويستهجن طلب ابن كيغلغ المدح منه، وهو لا يستحقه، فهو لا يمتلك شيئاً حتى يمدح به، لأنه ابن أم خسيسة، وأب أعور، يقول:

أَرْسَـــلْتَ تســـأَلُني المـــديحَ ســـفاهةً صفراءُ أضـــيقُ منـــكَ مـــاذا أزعُـــمُ (الكامل)
أتُرى القيـــادَةَ فـــي ســـواكَ تكسُّـــباً يا بن الأعَيّـــر وهـــيَ فيـــكَ تكـــرُّمُ[3]

والفعل يشابه النسب، فمن كرم نسبه كرمت أفعاله، ومن كان لئيم النسب كانت أفعاله لئيمة، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\264.
(2) المصدر نفسه، 4\129-130.
(3) المصدر نفسه، 4\130.

أفعـــالُ مَـــنْ تلـــدُ الكـــرامُ كريمـــةٌ وفَعالُ من تلـــدُ الأعـــاجمُ أعجـــمُ[1] (الكامل)

وإسحاق بن كيغلغ إنسان جاهل، كيف له أن يتوعد المتنبي على بعد المسافة بينهما، يقول:

أتاني كـــلامُ الجاهـــلِ ابـــنِ كيغلـــغ يجـــوبُ حزونـــاً بينَنـــا وسُـــهولا (الطويل)
ولو لمْ يَكُنْ بينَ ابنِ صفراء حائـــل وبيني سوى رُمحي لكـــانَ طَـــويلا[2]

وكان المتنبي يزيد على الملوك في صدق القول، وكان أشد شيء وقعاً على نفسه، ونكراً، من صادفه من الملوك، وتنقصه هذه الصفة؛ لذلك هجا كافور بعد أن مدحه مستبشراً؛ لأنه لم يكن صادقاً، وأخلف بوعوده [3].

والمتنبي ناضل منذ صباه في سبيل استعادة المجد العربي، باذلاً من الحمية والتضحية الشيء الكثير؛ وقد لاقى من جراء ذلك السجن والمضايق، إلا أنه ما كاد يتوسم أملاً في أمراء خالصي العروبة كسيف الدولة، حتى عاد يبوّق للنهضة العربية، ويهيب بالعرب في لهجة نابضة ملتهبة، إلى الانضمام والتحرر، وأراد بعض النقاد أن يغضوا من قدر صراحة المتنبي في موقفه هذا، لملازمته بعض الأمراء الأجانب وامتداحه إياهم، إلا أن في ذلك تهمة واهية، فقد كانت الأحوال إذ ذاك تضطر الشعراء في الغالب إلى ملازمة من يكرهون، ومجاورتهم، وإن ألجأهم ذلك إلى حجب عقائدهم الخاصة. والمتنبي لم يلجأ إلى الأجانب، إلا عندما خاب أمله في

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\132.
(2) المصدر نفسه، 3\263 – 264.
(3) العريض، إبراهيم: **فن المتنبي بعد ألف عام**، ص172.

العرب ثم خاب أمله في الأعاجم أيضاً، فعاد يتغنى بالعروبة، فكان أجمل شعر قاله في تمجيد العرب ما نظمه عند سيف الدولة[1].

والمتنبي راح يبكي القيم العربية الراحلة، وحاول أن يبعث الحياة في هذه القيم التي أبرزت التفوق العربي في الماضي، بخلق هذا النموذج في عالم الخيال. ودفعه إلى ذلك إيمان راسخ بأن التمسك بالعروبة بما تحمله من قيم ومبادئ، يحفظ الذات العربية، ويحدد كينونتها، ويمنع الأمة من تسلط الأعجمي، وتحكم المستغلين. ولما كان الممدوح ممن قبل الشاعر بهم من غير العرب أحياناً، فإن المتنبي لم يجعل منه مغتصباً بل رأى فيه القوة والمنعة في أعماقه، ورأى فيه القيم والمبادئ في بعض الأحيان، وإن كانت لا ترقى إلى قيم ومبادئ العرب التي غفلت عنها الأمة، فتسلط عليها الأغراب. وجعل منه ضيفاً على العرب له عليهم حق الضيافة، وواجب القرى[2]، يقول:

مـــا كُنـــتِ فاعلـــةً وضـــيفُكُمُ   مَلِـكُ الملـوكِ وشـأنُكَ البَخَـلُ (الطويل)
أَتمنعـــينَ قِـــرًى فتفتضـــحِي   أم تبـــذلِينَ لَـــهُ الّـــذي يَسَـــلُ
بـــل لا يحُـــلُّ بحيـــثُ حـــلّ بـــه   بُخْـــلٌ ولا جَـــوْرٌ ولا وَجَـــلُ[3]

فقبول العرب ولاية الممدوح عليهم، وهو أعجمي ما هو في تصور المتنبي، إلا من قبيل قرى الضيف، وحقّ الضيافة عليهم، لما سيلحقهم من عار فيما لو لم يقروا ضيفهم. وتلك عادة العرب.

---

(1) فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص631.
(2) إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص113.
(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\303.

لقد لاحظنا من خلال النماذج التي عرضناها أن صورة الآخر الأعجمي المسلم كانت تظهر بعدة ألوان؛ إما أن نجدها زاهية مشرقة ترضي الممدوح إلى أبعد الحدود لغاية في نفس المادح كما أسلفنا، أو نجدها قاتمة سوداء تحمل كلّ معاني السخرية والاستهزاء والذم. وتكون ناتجة عن موقف معين، أو ردة فعل لموقف ما.

فرفض الذات "للآخر" ينطلق في بعض الأحيان من واقع الإحساس بالعدوانية، أو الظلم، أو الغبن الاجتماعي، وهو ما قد يتولد عنه الإحساس باغتراب الذات، فتبدأ في إعلان التمرد الذي قد يؤثر على علاقتها بذلك "الآخر" نفوراً وبغضاً، وبخاصة إذا أحسّ المبدع قدراً من الضياع الذي قد ينتهي به إلى الفشل في تحقيق طموحه، ومراميه [1].

---

(1) خليف، مي: **ميمية المتنبي (مجالات الإبداع وطبيعة المعالجة)**، ص49.

المبحث الثاني

الآخر الأعجمي غير المسلم

كانت الخلافة العباسية في أواخر القرن الثالث، ومستهل القرن الرابع للهجرة في حالة من الفساد والتفكك، وكانت السلطة المركزية في بغداد أضعف من أن تفرض الهيبة على العاصمة، بعد أن طغت الحاشية، وسادت الفوضى، وعبثت بمصلحة الدولة مطامع القادة والجنود، وأهواء الخدم والنساء؛ فاستبد الأعاجم بالحكم، وطمع العمّال بما في أيديهم من ثغور وخراج، وأعلنوا العصيان، وأنشأوا الحواضر والإمارات، بعضها يرتبط صوريا ببغداد، وبعضها يناصبها العداء، وكلّها تعمل للتوسع على حساب الخلافة الضائعة، فإذا بكل قوي طموح تحدثه نفسه بالسيطرة والاستيلاء.[1]

وكانت الرقعة الإسلامية ممزقة إلى دويلات: البويهية في فارس وبغداد، والإخشيدية في مصر والشام، والحمدانية في الموصل وحلب، والسامانية في خراسان وما وراء النهر، والقرمطية في البحرين واليمامة. وإلى جانب هذه الدويلات التي تصطرع فيما بينها مؤامرات تحاك، وثورات تنشب، وعدو خارجي يتربص على حدود الشمال. جيوش الروم تزحف موجة تلو أخرى فتحرق وتدمر في تخوم العرب، وإذا هجرها الحمدانيون حينا، تطغى بعد ذلك حتى تصدم جدران حلب، وتغرقها بالحديد والنار [2].

---

(1) نقلاً عن الهاشم، جوزف: **أبو الطيب المتنبي (شاعر الطموح والعنفوان)**، ص8-9.

(2) نقلاً عن المصدر نفسه، ص9.

في هذه الظروف ولد وعاش المتنبي، عاش في ظروف افتقد فيها العربي قيم البطولة، ضاعت فيها أخلاق الأمة العربية؛ بسبب اختلاط العرب بشعوب لا تقيم وزناً للخلق، أو الدين[1].

ونظراً لحضور الأعاجم، وبخاصة الروم في حياة العرب في هذا العصر، كان من الطبيعي حضورهم في الشعر الذي يتغنى بالحروب التي دارت بين المسلمين وبينهم.

إن وصف المعارك بين المسلمين والروم قديم، ارتبط ببدايات الجهاد الإسلامي، وقد خاض في هذا الموضوع كثير من الشعراء الذين سبقوا المتنبي، ولكنّهم لم يفرغوا له كما فرغ له، ولم يقفوا عليه أكثر جهدهم كما وقف عليه، ثم لم يشتركوا في الجهاد كما اشترك فيه المتنبي، ولم يشهدوا مواقعه كما شهدها المتنبي، ولم ينعموا كما نعم، ولم يشقوا كما شقي بما كانت هذه المواقع تعقب من انتصار، أو اندحار [2].

كان المتنبي من أعظم المتغنين بحروب العرب ضد الروم، وموقفه من الأعاجم (الروم) موقف العدو الناقم الذي يفرح بانكسارهم، ويغالي بالسخر منهم، وإظهار جانب السوء فيهم[3].

والمتنبي في تصويره للجيش الرومي يقدم صورة تاريخية عن عدوه، وأعتدته، وعن اختلاف عناصره في الجنس واللسان، ولا بد من أن يؤثر سلبياً في إيمان ذلك الجيش، وصموده شأن كل جيش إمبراطوري لا توجد بين أفراده قومية ثابتة متينة، وهدفية مصيرية عميقة، والمتنبي يعطي في هذا بصدق[4]، يقول:

---

(1) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص96.

(2) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص173.

(3) فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص615.

(4) حطيط، كاظم: **دراسات في الأدب العربي**، ص123.

تَجمَّــعَ فيـــهِ كـــلّ لِسْـــنٍ وأُمَّـــةٍ فما يفهمُ الحُـــدَّاثُ إلا التـــراجمُ[1] (الطويل)

وأبدع المتنبي في تصوير بطولات الأمير سيف الدولة الحمداني ضد جيش الروم، من خلال قصائده التي عرفت باسم السيفيات، فذكر القواد، وتنظيم الجيش، والخيول، والرماح المحطمة، والسيوف المتكسرة، والدماء السائلة، كما وصف سماء المعارك والغبار المثار والمنعقد في الفضاء، والجبال التي طواها الجيش الحمداني، والأنهار والسيول التي قطعها. والمتنبي أكثر وأجاد في وصف المعارك، وهو إن خاض في معركة كان لسانه أمضى من نصالها، وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا، والسلاحين قد تواصلا. والمتنبي كان يشهد الحروب مع سيف الدولة، ويصف لسانه ما أدى إليه عيانه [2].

وحفل شعر المتنبي بالمعلومات التاريخية، وهو شاهد عيان، سجّل كلّ موقعة بقصيدة أو أكثر، وذكر من أسماء الأماكن ما غفله المؤرخون، ومن تفاصيل المكان والزمان ما له أهميته في التاريخ؛ وأشاد بمهارة سيف الدولة، وسرعة انقضاض جيوشه، والهزائم المختلفة؛ ووصف أسلحة الروم، وضخامة جيوشهم، وحسن نظامها بدقة متناهية، فقدم لنا صورة ناطقة للآخر غير المسلم من خلال قصائد الجهاد [3]، يقول:

أَتَوْكَ يجرّونَ الحديدَ كأنَّهُمْ سَرَوْا بجيادٍ ما لهنَّ قوائمُ (الطويل)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\385.

(2) الهاشمي، أحمد: **جواهر الأدب**، 1\373. الجابر، سعود: **الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني**، ص68-69.

(3) فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص616.

إذا بَرَقوا لم تعرفِ البيضُ مـــنهمُ   ثيابُهُمُ مـــن مِثْلِهـــا والعَمـــائمُ[1]

ويقدر المتنبي قوات الروم ب "خميس" من خمس فرق، كما يحدد محور هجومه على قلعة الحدث من الشرق باتجاه الغرب، يقول:

خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ   وفي أُذُنِ الجوزاءِ منـــهُ زَمـــازمُ[2] (الطويل)

كما تقدر قوة الروم لا بالخميس فحسب، بل بذكر المتنبي للرتب العسكرية نحو توظيفه لكلمة البطاريق، فكل بطريق يترأس عشرة آلاف جندي [3].

فالبطاريق لطالما بكوا على أسيرات سيف الدولة، يقول:

تُبَكِّي عليهنَّ البطـــاريقُ فـــي الـــدُّجَى   وَهُنَّ لَـــدَينا ملقيـــاتٌ كَوَاســـدُ[4] (الطويل)

ونرى أن فن المتنبي في التصوير يظهر على أشده في "الحركة"، وفي تصوير القتل، والدماء، والسبايا، والانسحاب، والهجوم، والخيل، والمواقع، والحصون، والأنهار، مما يعد ملحمة شعرية لحروب البطولة، ومثالاً لتصوير المعارك ما بين العرب والروم، مع أخلاقهم وصفاتهم، وانتصارهم عليهم [5].

ها هو يصف لنا الغارات التي شنَّها سيف الدولة على بلاد الروم، حيث خضب بلادهم بالدم، فكانت جثثهم ملقاة على الأرض كالساجدين في المساجد، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\384.

(2) المصدر نفسه، 3\384.

(3) ربابعة، حسن: **أدب الحرب عند المتنبي**، ط1، الأردن: مؤسسة رام للنشر والتوزيع، 2004، ص27–28.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\276.

(5) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص184.

وأَشْقَى بِــلادِ اللهِ مــا الــرُّومُ أهلُهــا   بِهذَا ومــا فيهــا لمجــدِكَ جاحِــدُ   (الطويل)
شَننتَ بها الغــارَاتِ حتــى تَركْتَهــا   وجَفنُ الَّذي خَلْفَ الفَرَنْجــةِ ســاهدُ
مُخَضَّــبةٌ والقــومُ صــرعى كأنّهــا   وإن لم يكونوا ســاجدينَ مســاجدُ(1)

ويجيد المتنبي في تصوير حالة الجيش الهارب، وقد خذله قواده، وفقد معنوياته، فهو يستعيد حروب سيف الدولة السابقة، فيسمع صليل السيوف، وحشرجة المصابين، ويرى الدماء دافقة، والأوصال مقطعة مبعثرة؛ يلمس الموت الذي خيم على الساحة، وبسط جناحيه الرهيبتين، ويجسم خياله الأشياء، فيتحسس جسده ليتأكد ما إذا كان في حلم، أو لا يزال حياً يرزق. لقد شغله الهول عن كل شيء حتّى عن سيفه الذي بيده، وغلّ الرعب لسانه وفكره، فخيل له أن الأرض تضيق به، والريح تسفعه بالدماء والأشلاء، يقول:

تحمــلُ الــرّيحَ بيــنهم شَــعَرَ الهَــا   م وتُــذرِي علــيهمُ الأوصَــالا   (الخفيف)
ينفُضُ الــرَّوعُ أيْــدِيا لــيسَ تــدري   أَســيوفاً حملــنَ أم أغــلالا(2)

إن خيل سيف الدولة أهلكت جيش الروم، واستطاع سيف الدولة بذلك أسر العديد من جيوش الروم بالإضافة إلى القتلى، يقول:

عَصَفْنَ بهــمْ يــومَ اللُّقــانِ وسُــقْنَهُمْ   بهنزيطَ حتى أبيضَّ بالســبيِ آمــدُ   (الطويل)
وألحقْنَ بالصَّفصافِ سابورَ فــانهَوَى   وَذَاقَ الرَّدَى أهْلاهُما والجَلامُــدُ(3)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\273.

(2) المصدر نفسه، 3\142-140.

(3) المصدر نفسه، 1\274. اللقان: حصن الروم وكذلك هنزيط، وآمد بلد معروف، سابور والصفصاف: حصنان منيعان للروم.

ثم يصف لنا حال ملك الروم الذي خضع لسيف الدولة بعد أن خلف معظم جيشه صرعى، يقول:

وبتنَ بحصنِ الرّانِ رَزْحى منَ الوَجَى   وكُـــلٌّ عزيـــزٍ للأميـــرِ ذليـــلُ (الطويل)

لَبسنَ الدُّجَى فِيها إلى أرضِ مـــرعَشٍ   وللرومِ خطبٌ في الـــبلادِ جليـــلُ[1]

إن المتنبي كان يقول شعره متأثراً بما يرى، ومن هنا نفهم السبب فيما نحسّه من تأثّر خاص حين نقرأ وصف المتنبي لهذا الجهاد بين المسلمين والروم، تأثر لا نجده حين نقرأ ما كان يقوله غيره من الشعراء في وصف الحروب [2].

لقد بنى سيف الدولة قلعة تدعى "الحدث" في أرض الروم، وغلب هؤلاء عليها، وتحصنوا فيها، فهاجمهم سيف الدولة، وقاتلهم، واصطبغت القلعة بالدماء، واستطاع الأمير العربي استعادتها، فقال المتنبي في ذلك قصيدة أنشدها سيف الدولة في القلعة، فجاءت تسجيلاً وتتويجاً لذلك الانتصار العربي العظيم [3].

فصور لنا جيش الروم الذي تجمع حول القلعة، وقد سفك سيف الدولة دماءهم، فأمست كالمطر، وصور لنا جثثهم التي علقت على حيطان القلعة كالتمائم، يقول:

سَـــقَتْها الغمـــامُ الغُـــرُّ قبـــل نزولِـــهِ   فلمّا دَنا منهـــا سَـــقَتْها الجمـــاجمُ (الطويل)

بَناهـــا فـــأعلى والقنـــا تقـــرعُ القَنـــا   وموجُ المنايَـــا حَولهـــا مـــتلاطمُ

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\103-104. الران: حصن من حصون الروم وكذلك مرعش.

(2) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص173.

(3) حطيط، كاظم: **دراسات في الأدب العربي**، ص121.

وكان بها مثـلَ الجنـونِ فأصْـبَحتْ وَمِنْ جُثَثِ القتلى عليهـا تمـائمُ[1]

ويتعجب المتنبي من الروم والروس الذين حلموا في هدم القلعة التي بناها سيف الدولة، وهي مدعومة بشجاعته، ومؤسسة بطعنه، يقول:

وكيفَ ترَجَّى الرومُ والرّوسُ هَـدْمَها وذا الطَّعنُ أسـاسٌ لهـا ودَعـائمُ (الطويل)
وَقَـدْ حاكموهـا والمنايـا حـواكمٌ فما ماتَ مظلومٌ ولا عَاشَ ظـالمُ[2]

ثم يصف لنا بسالة سيف الدولة، الذي جعل خيل جيش الروم كالجبال لهم يتحصنون بها من حدّة رماحه، التي قطعت لحمهم بعد انتشار جيشه كالقلائد، يقول:

تُنكِّسـهُمْ والسّـابقاتُ جبـالُهمْ وتطعُنُ فـيهمْ الرّمـاحُ المكايـدُ (الطويل)
وتضرِبُهُمْ هَبْـراً وقـد سَـكَنوا الكُـدَى كَما سَكنتْ بطنَ التُّرابِ الأساودُ
وتضحى الحصون المشمخرات في الذرى وخيلك فـي أعنـاقهن قلائـدُ[3]

وسيف الدولة وزّع الرعب النفسي على الروم، فأقضّ مضاجعهم، وهذا ما يسمى "عصاب الحرب"، فاستطاع أن يغمرهم بالرعب النفسي ليل نهار [4].

وعصاب الحرب يمتد إلى الأسرى، فيبول بعضهم على فخذيه بعد أن تبلّل ثوبه بالدماء، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\381.
(2) المصدر نفسه، 3\383.
(3) المصدر نفسه، 1\273-274.
(4) النابلسي، محمد: **الصدمة النفسية**، ط1، بيروت: دار النهضة العربية، 1991، ص31-37. وانظر ربابعة، حسن: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص116.

فَغَـــدا أســـيراً قـــد بَلَّلْـــتَ ثيابَـــهُ بـــدَمٍ وبَـــلَّ ببولِـــهِ الأفخـــاذا[1] (الكامل)

لقد برع المتنبي في تصوير معارك سيف الدولة ضد الروم، ذلك أنه لم يكن يشاهدها بعينه فقط، وإنما كان يحياها بمشاعره وآماله و بطولاته، فيصورها بدقة وصدق، ووصفه لها كان ينجم عن عاطفة جياشة تجسد الصور تجسيداً، وتعرضها للمتلقي، فيعيشها وكأنه داخل الحدث نفسه.

ويصور لنا حال جيش الروم الذين استسلموا لسيف الدولة، وطالبوه بالصلح من شدة خوفهم منه بعد أن قتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر، يقول:

رجا الرُّومُ من تُرجَى النَّوافــلُ كُلُّهــا لَديــهِ ولا تُرجَــى إليــهِ الطَّوائِــلُ (الطويل)

فإن كانَ خوفُ القتلِ والأسرِ ســاقهمُ فقدْ فَعلوا ما القتلُ والأســرُ فاعــلُ

فخـــافوكَ حتـــى مـــا لقتـــلٍ زيـــادةٌ وجاؤوكَ حتى ما تزادُ السَّلاسلُ[2]

ويكرر وصفه لإقدام سيف الدولة على جيش الروم، حيث قطع الرؤوس بسيفه دون رحمة، يقول:

أيـــن خَلَّفْتَهَـــا غـــداةَ لقيـــتَ الـــرُّ ومَ والهـــامُ بالصَّـــوارمِ تُفلـــى (الخفيف)

ولَعمـــري لقـــدْ شَـــغلتَ المنايـــا بالأعادي فكيفَ يَطْلُـبنَ شُـغلا[3]

إن المتنبي عندما يذكر إغارة سيف الدولة على الروم، يكون إحساسه أثناء الوصف صادراً عن حس جاهلي في بعض الأحيان، إنه يعود في ذلك إلى القيم العربية في عصور

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\84.

(2) المصدر نفسه، 3\116.

(3) المصدر نفسه، 3\126-127.

عصبيتها، ولهذا نراه كثيراً ما يذكر نزول سيف الدولة ببلاد الروم، وقد أهلك منها من أهلك، وسبى من سبى من الأولاد والصغار والنساء، وقتل من قتل منهم، ولم يكتف بهذا بل دمّر المكان، وحرق الزرع [1]، يقول:

للسَّبي ما نكَحوا والقتلِ مـــا وَلَـــدُوا والنَّهبِ ما جَمَعوا والنَّارِ ما زَرَعوا [2] **(البسيط)**

وينقلنا المتنبي إلى اشتباك بالسهام بين سيف الدولة والروم، فنشهد عنده تغيراً في نواميس السهام، فإذا وابل سهام الروم على المسلمين طلا نديا، وإذا بوابل سهام المسلمين على الروم قوياً غزيراً، يقول:

إذا مَطَرَتْ مـــنهمْ ومنـــكَ ســـحائبٌ فَـــوابلهُمْ طَـــلٌ وطَلُّـــكَ وابـــلُ [3] **(الطويل)**

ثم يتحدث عن علي بن أحمد الأنطاكي الذي يتلذذ في قتل الأعداء، يقول:

يديرُ بـــأطرافِ الرّمـــاحِ عليهِمُـــو كؤوسَ المنايا حيثُ لا تشتهِي الخمرُ [4] **(الطويل)**

لقد استطاع المتنبي من خلال البيت السابق أن ينقلنا إلى مشهد دموي تتراسل فيه الحواس، حيث يدير أطراف الرماح على الروم بصورة حركية، تدار معها كؤوس المنايا لذيذة عند ممدوحه بصورتها الذوقية، فينتشي بها مستغنياً عن لذة الخمر [5].

ورماح سيف الدولة نافذة في دروع الروم، وإن كانت محكمة من أنساج داوود التي

---

(1) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص99.

(2) المتنبي، أبو الطيب : **الديوان**، 2\224.

(3) المصدر نفسه، 3\116.

(4) المصدر نفسه، 2\151.

(5) ربابعة، حسن: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص32.

ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم: چگ گ ݢ ڳ ڳ ڳڳ چ [1]

لقد تحولت الدروع على متانة صنعها إلى نسيج من عنكبوت لبسالة سيف الدولة، يقول:

قَواضٍ مواضٍ نســـجُ داوودَ عنــدَها　　　إذا وَقَعَت فيــه كنســـجِ الخَــدَرْنَقِ[2]　(الطويل)

ولعل لهيبة سيف الدولة برعبه الممتد فيهم دوراً أكده "شلمبرجة" على لسان الروم، فأسموه "الكافر الحمداني"، وهو المحارب الوحيد الأعظم السامي الذي أعلن الحرب المقدسة على النصرانية [3].

إن سيف الدولة حاول أن يقتل ملك الروم، ففدته أصحابه العلوج، إلا أنه قتلهم، ونال منهم بالرغم من تهديدهم، فهم ليسوا أهلاً للحرب كجماعة سيف الدولة، الذين ظهروا عنده كالنجوم في أبراجها لا تنفك عنها، يقول:

تحاولُ نفــسَ ملــكِ الــرّومِ فيهــا　　　فتفديـــــــهِ رَعيّتُــــــهُ العلـــــوجُ　(الوافر)

أبا الغمــراتِ توعــدُنا النَّصَــارَى　　　وَنَحْــنُ نجومُهــا وهـــيَ البـــروجُ[4]

وأبرز المتنبي رسول ملك الروم لابساً درعه، ويخفق قلبه هلعاً، ويمشي بين صفين متقابلين من جند سيف الدولة الذين صفوا لاستقباله، وكان سيف الدولة يقف على بساط الملك الرومي وعليه تاجه، فقسم الوفد نظرته بين سيف الدولة حيناً، وسيفه حيناً آخر، يقول:

---

(1) **سورة سبأ**، آية رقم 10.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\309. الخدرنق: العنكبوت.

(3) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة الحمداني**، ط2، القاهرة: دار المعارف، (د، ت)، ص258–259.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\239–238.

أتاكَ يكـــادُ الـــرأسُ يجحَـــدُ عنقَـــهُ   وتنقدُّ تحـــتَ الـــذُّعرِ منـــهُ المفاصِـــلُ   (الطويل)

فقَاســـمكَ العينـــينِ منـــهُ ولحظَـــهُ   سَـــمِيُّكَ والخِـــلُّ الّـــذي لا يزايـــلُ

يُقَـــوَّمُ تقـــويمَ السّـــماطَينِ مَشْـــيَهُ   إليـــكَ إذا مـــا عوَّجَتْـــهُ الأَفَاكِـــلُ [(1)]

لقد وظف المتنبي العامل النفسي بأدوار متعددة، فشحذ همة سيف الدولة وجيوشه المسلمين من جهة، وأضعف همة جيوش الروم من جهة أخرى، فالشاعر كان بمثابة الموجّه والقائد والمؤرخ، والمتنبي بالذات كان يرصد الأحداث عن كثب، فكان يشهد المواقع والغارات، ويقاتل بسيفه ولسانه الذي هو أشد وأمضى من السيف.

أما حربه النفسية على الروم فأشدّ وأقوى، فقد كان يبرزهم حشوداً مصمِّمة على إبادة المسلمين، ومع ذلك يفشلون، وأشار غير مرة إلى دورهم الاستخباري في جمع المعلومات الدقيقة عن المسلمين [(2)].

وها هو يتغنى بقتله إياهم هو وجماعة المسلمين، حيث جعلوا أبدانهم تختلط بعظامهم، يقول:

أدَمْنَـــا طَعْـــنَهُمْ والقتـــلَ حتَّـــى   خَلَطْنَـــا فـــي عظـــامِهُم الكُعُوبـــا[(3)]   (الوافر)

وقادة الروم يرتدون الدروع السابغات؛ ليردوا عن أنفسهم طعون الرماح وأسنتها، يقول:

تَرُدُّ عنـــهُ قَنـــا الفُرســـانِ ســـابغة   صـــوبُ الأســـنَّةِ فـــي أثنائهـــا دِيَـــمُ   (البسيط)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\113.

(2) ربابعة، حسن: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص50.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\138.

تخطُّ فيها العــوالي لــيسَ تنفُــذُها   كـــأنَّ كُـــلَّ ســـنانٍ فوقَهـــا قَلَـــمُ[1]

وفي موقف حربي يعد الشجر الذي يستتر به الروم معادلاً للدروع بجامع الحماية، يقول:

فلا سَقى الغيثُ ما واراهُ من شــجرٍ   لو زلَّ عنهُ لوارى شخصَــهُ الــرَّخمُ[2] **(البسيط)**

وعدّ رسائل الروم، وهي تطلب الصلح من سيف الدولة دروعاً تقيهم بأسه، يقول:

دُروعٌ لملْكِ الرّومِ هــذي الرّســائلُ   يَــرُدُّ بِهـــا عَـــنْ نفسِـــهِ ويشـــاغلُ **(الطويل)**

هي الزَّرَدُ الضَّافي عليهـــا ولفظُهـــا   عليـــكَ ثنـــاءٌ ســـابغٌ وفضـــائلُ[3]

إن المتنبي يحاول تجسيد حياة متحركة في صوره، فتبدو كمشهد يجمع بين قدرة الكلمة على تحريك الصورة في حيّز زمني، وقدرة التصوير على تقديم مساحة مكانية لعديد من المشاهد، واستطاع أن يقدّم لنا مشهداً متحركاً لجيوش الروم، ولم يكتف بمجرد الحركة وحدها، بل حاول أن يجسد هذا المشهد تجسيداً من خلال وصف أسلحة جيش الروم، وحالهم حيث كان يتلبسهم الرعب والخوف، فهم جبناء بالرغم ممّا يتحصنون به من دروع واقية، وأسلحة عظيمة [4].

ويستعرض المتنبي المعركة التي دارت بين جيش المسلمين، وجيش الروم من خلال رصده لمظاهر تفوق المسلمين، وأثر هذا التفوق البطولي على الأعداء ونفسيتهم، فيتبين كيف أن كتائب سيف الدولة أقبلت متتابعة، وحلت كسحابات سوداء تحير في أمرها قائد الروم وأصحابه،

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\25.

(2) المصدر نفسه، 4\25.

(3) المصدر نفسه، 3\112.

(4) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي**، ص207.

فهي جيوش كثيرة العدد موزعة على مواضع متفرقة لاستحكام إحاطتها بالعدو، ثم اندفعت وتدافعت كأنها طعنات موجهة إلى أجساد فرسان الأعداء وأفراسهم، يقول:

ذَمَّ الدُّمســتقُ عينيــهِ وقَــد طَلَعــتْ ... ســودُ الغمــامِ فَظنــوا أنَّهــا قَــزَعُ (البسيط)
فيها الكُماةُ التــي مفطومُهــا رَجــلٌ ... على الجيــادِ التــي حوليُّهــا جَــذَعُ
يُذرِي اللُّقانُ غُباراً فــي مَناخِرِهــا ... وفي حناجِرِهــا مــن آلــسٍ جُــرَعُ
كأنمــــا تتلقَّـــــاهُمْ لتســـــلُكَهُمْ ... فالطَّعنُ يفتحُ في الأجوافِ ما تَسَعُ (1)

وحينما يتناثر الغبار من المتقاتلين، فإنَّ أسنة الرماح تضيء الطريق كمصابيح مشرقة. ويحاول عسكر الروم في هذه الموقعة أن يستنجد بمدد آخر، ولكنّ هذا المدد لا يستطيع الوصول، إذ تحول رماح جيش سيف الدولة بينه، وبين هذا. وهكذا يهرب "الدمستق" القائد الرومي بنفسه، بعد أن قتل وأسر العديد من أصحابه، يقول:

تهذي نواظِرَها والحــربُ مظلمــةٌ ... مــن الأســنَّةِ نــارٌ والقنــا شَــمَعُ (البسيط)
دونَ السِّــهامِ ودونَ القُــرِّ طافِحَــةً ... علــى نفوسِــهِم المُقَــوَّرَةِ المُــزُعُ(2)

ويصف المتنبي لنا حال الدمستق وابنه، فالأول فرّ هارباً مخلفاً وراءه ابنه الذي وقع في الأسر فجرح مهجته، والثاني يتعجب من شجاعة سيف الدولة، يقول:

على قلبِ قُسْـطَنْطينَ منــهُ تَعَجُّــبٌ ... وَإِنْ كانَ فــي ســاقيْهِ مِنــهُ كُبُــولِ (الطويل)
لعلَّــك يومــاً يــا دُمُسْــتُقُ عائــدٌ ... فكــم هــاربٍ ممَّــا إليــه يَــؤولُ

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\226–227. الدمستق: صاحب جيش الروم. الكماة: جمع كمي وهو الشجاع المستتر في سلاحه. آلس: نهر هناك.

(2) المصدر نفسه، 2\227. المقورّة: الضامرة. المزع: السريعة.

نجوتَ بإحــدَى مُهجتيــكَ جَريحــة وخلَّفْــت إحــدى مهجتَيْــكَ تَســيلُ
أَتُسْــلِمُ للخطِّيَّـــةِ ابنـــكَ هاربـــاً ويسكنُ فـــي الـــدُّنيا إليــكَ خَليــلُ[1]

وسار سيف الدولة نحو ثغر الحدث، وكان أهلها قد سلموها بالأمان إلى الدمستق (صاحب جيش الروم)، فنزل فيها سيف الدولة ووضع الأساس. ولمّا كان يوم الجمعة نازله ابن القفاس "دمستق الروم" في خمسين ألف فارس من جموع الروم والأرمن والبلغر والصقلب، ووقعت يوم الاثنين موقعة ما بين جيوش سيف الدولة والأعاجم، وسيف الدولة حمل بنفسه في نحو خمسمئة من غلمانه وقصد موكبه، فهزمه وقتل ثلاثة آلاف من جيوشه، وأسر خلقاً كثيراً منهم تودس الأعور بطريق سمندو، وهو صهر الدمستق على ابنته، وأسر ابن الدمستق، و أقام على قلعة الحدث [2].

فوصف لنا المتنبي أحداث قلعة "الحدث" بدقة متناهية تشعر المتلقي بأنه أمام مشهد حي ومثير، فالرماح لم تطلب سوى الدمستق، وكان ابنه فداء له. والدمستق انهزم بالرغم من ارتدائه للدروع، فلجأ بعد الهزيمة إلى عصا، ومشى بها بعد أن كان لا يرضى بمشي الخيل السريعة، يقول:

وما طَلَبَــتْ زُرْقَ الأَسِــنَّةِ غَيــرَهُ ولكنَّ قُســطنطينَ كــانَ لَــهُ الفِــدا (الطويل)
فأصبحَ يجتــابُ المُسُــوحَ مخافــةً وقد كانَ يجتابُ الــدّلاصَ المسَــرّدا
ويمشِي بهِ العكَّازُ في الــدَّيرِ تائبــاً وما كانَ يرضَى مَشْيَ أشقَرَ أجْــرَدَا

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\106.
(2) نقلاً عن الطبال، أحمد: **المتنبي (دراسة نصوص من شعره)**، ص21.

وَمَا تابَ حتى غادَرَ الكَـــرُّ وَجْهَـــهُ　　　جَريحاً وخَلَّى جَفْنَهُ النَّقْـــعُ أرمَـــدا[1]

والدمستق، وإن فرّ هارباً، فهو أذلّ ممن أسر، وآثار الفزع باقية على وجهه، فلم يخف شرب الخمر صفار وجهه، يقول:

أجَلٌّ مِـــنْ ولَـــدِ القفـــاسِ مُنكتِـــفٌ　　　إذْ فَاتهنَّ وأمضَـــى منـــه منصَـــرِعُ　(البسيط)

وما نَجا مِن شِفارِ البِـــيضِ منفلـــتٌ　　　نَجـــا ومـــنهنَّ فـــي أحشـــائهِ فَـــزَعُ

يباشرُ الأمنَ دهـــراً وهـــو مُختَبَـــلٌ　　　ويشربُ الخمرَ حَوْلاً وهوَ مُمْتَقَـــعُ[2]

والمتنبي أكثر من استعمال طريقة عنترة، حيث كان يسترسل في وصف عظمة الخصم حتى إذا رسم له صورة مهيبة، عطف إلى ممدوحه فجعله يتغلب عليه بيسر، وبذلك يكون نصره أروع، وأملأ للقلوب والعيون [3].

ها هو يصف جيش الدمستق الذي عمّ الجبال، وغطاها لكثرته، فجيوشه على كثرتها لم تسمح للريح أن يتحرك، وسيطرت بأصواتها على أصوات جيش سيف الدولة، يقول:

تغيـــبُ الشَّـــواهِقُ فـــي جيشِـــهِ　　　وتَبـــدو صِـــغاراً إذا لـــمْ تَغِـــبْ　(المتقارب)

ولا تعبُـــرُ الـــرّيحُ فـــي جَـــوّهِ　　　إذا لـــم تَخَـــطَّ القَنـــا أو تثـــبْ

فغـــرَّقَ مُـــدْنَهُمُ بـــالجيوشِ　　　وأخفَـــتَ أصـــواتَهُمْ باللّجـــبْ[4]

---

(1) المتنبي، أبو الطيب : **الديوان**، 1\284. قسطنطين: ولد الدمستق. والمسوح: جمع مسح، وهو ما ينسج من الشعر. والدلاص: الدروع البارقة.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان** ، 2\228.

(3) الهاشم، جوزف: **أبو الطيب المتنبي (شاعر الطموح والعنفوان)**، ص55.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\102. اللجب: الصوت الشديد.

وجيش الدمستق على عظمته لم يستطع رد رماح سيف الدولة، فانهزم الدمستق وجيشه، وولى هارباً تاركاً الجميع بعدما تشاجرت رماحهم، كما تختلط الأهداب الأعالي بالأسافل عند النوم، يقول:

وهـــلْ رَدَّ عَنـــهُ باللُّقـــانِ وُقُوفُـــهُ صُـــدورَ العَـــوَالي والمُطَهَّمَـــةَ القُبَّـــا (الطويل)

مَضى بعدما التفَّ الرّماحان ســاعةً كما يتلقَّى الهُـدْبَ فـي الرَّقـدةِ الهـدبَا

ولكنـــه ولّـــى وللطعـــنِ سَـــوْرَةٌ إذا ذكرتهـــا نَفْسُـــهُ لَمَـــسَ الجبنَـــا

وخلَّى العذارَى والبطاريقَ والقُـرَى وشُعْثَ النَّصَارى والقرابينَ والصُّـلْبا[1]

ولمّا أسر سيف الدولة ابن الدمستق يئس الدمستق من الحياة، فسمّى يومه مماتاً، وسمّى ابنه حياة لأنه فرّ ونجا، فصار كيوم ولدته أمه، يقول:

لذلكَ سَمّى ابـنُ الدُّمسـتقِ يَومَـهُ مَماتـاً وسـمَّاهُ الدمسـتُقَ مولِـدَا (الطويل)

فـولَّى و أعطـاكَ ابنـهُ وجيوشَـهُ جميعاً ولمْ يعـطِ الجميـعَ ليُحْمَـدا[2]

وفي كل يوم يقدم الدمستق على سيف الدولة، ويفر خائباً لائماً نفسه على إقدامه غير المجدي، ولم يرتدع من حملات سيف الدولة التي فجعته بابنه، وأصهاره، يقول:

أَفي كـلّ يـوم ذا الدّمسـتُقُ مُقْـدِمٌ قفـاه عَلـى الإقـدامِ للوجـهِ لائـمُ (الطويل)

وقدْ فَجَعتـهُ بابنـهِ وابـنِ صـهرهِ وبالصّهرِ حملاتُ الأميـرِ الغواشِـمُ

ويفهـمُ صـوتَ المشـرفيَّةِ فـيهِمُ على أن أصواتَ السُّيوفِ أعـاجِمُ[3]

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\64. البطاريق: أمراء الجيوش وفرسانهم.

(2) المصدر نفسه، 1\283.

(3) المصدر نفسه، 3\389-390.

ويصور المتنبي كرور سيف الدولة على الروم واقتحامه ملطية قائلاً:

وكَرَّتْ فمرَّتْ فـــي دمــاءِ مَلَطْيَـــةٍ مَلَطْيَــــــةٍ أُمّ البنــــــين ثكـــــولُ (الطويل)
وأضعفنَ مــا كلّفنَــهُ مــن قباقــبٍ فأضحَى كأنَّ المــاءَ فيــهِ عليــلُ(1)

ويصف المتنبي ملك الروم وجيشه الذي يصعب إحصاؤه، وقد هجم على أهل الثغر بكل ثقة، بعد أن علم بمرض سيف الدولة، وأيقن بعدم مجيئه، يقول:

وَغَـــرَّ الدُّمســـتقَ قـــولَ العـــدا ةِ إنَّ عليّـــاً ثقيـــلٌ وَصِـــبْ (المتقارب)
وقـــد عُلِمَـــتْ خيلُـــهُ أنَّـــهُ إذا هَـــمَّ وهـــو عليـــلٌ رَكِـــبْ
أتـــاهُمْ بأوسَـــعَ مـــن أرضِـــهِمْ طِوالَ السَّـبيبِ قِصــارَ العُسُــبْ(2)

والدمستق خبيث في طلبه وهربه، لقد جاء في غياب سيف الدولة يقاتل أهل الثغور، وهرب بمجيئه، يقول:

فَأخبِـــثْ بِـــهِ طالبـــاً قهـــرَهُمْ وأخبِـــثْ بِـــهِ تاركـــاً مـــا طَلَـــبْ (المتقارب)
نأيْـــــتَ فقـــــاتَلَهُمْ باللِّقـــــاءِ وجِئْـــــتَ فقـــــاتَلَهُمْ بـــــالهَرَبْ
وكـــانوا لـــهُ الفخـــرَ لمَّـــا أتَـــى وكنْتَ لَــهُ الغُـدْرَ لمَّــا ذَهَــبْ(3)

والروم زعموا بأن الدمستق سيعود، ومعه الملك الأعظم، والملكان يستنصران المسيح ويلجآن إليه، مع أنه لم يستطع رفع الهلاك عن نفسه بقتل اليهود له، يقول:

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\102.

(2) المصدر نفسه، 1\101. السبيب: شعر الناصية. والعسب: منبت الذنب.

(3) المصدر نفسه، 1\102.

وقـــد زَعَمُـــوا أَنَّـــهُ إنْ يَعُـــدْ		يَعُـــدْ مَعَـــهُ الملِـــكُ المُعتَصِـــبْ (المتقارب)

ويستنصــــرانِ الّـــذي يعبـــدانِ		وعنـــدهُما أَنَّـــهُ قَـــدْ صُـــلِبْ

ويـــــدفعُ مَـــــا نالَـــــهُ عَنهمـــــا		فيـــا للرّجـــال لهـــذَا العَجَـــبْ[1]

وفي هزيمة سيف الدولة يهون المتنبي عليه، حتى لا ينهار معنوياً، فيذكر أهم أسبابها، وهي الخيانة، وتشاغل المسلمين في الغنائم [2].

أما أسرى العرب فخساس القوم برأيه؛ لأنهم اختلفوا، وخسائر المسلمين تنقية للجيش من السفلة والأراذل، يقول:

قُـلْ للدّمســتقِ إنَّ المســلمينَ لكُـمْ		خانُوا الأميرَ فجازاهم بِما صَـنَعُوا (المتقارب)

وجــدتموهُمْ نيامـــاً فـــي دمـــائِكُمُ		كـــأنَّ قـــتلاكُمُ إِيَّـــاهُمُ فَجَعُـــوا[3]

ثم يصف لنا أسيرات الخوف الروميات، فهن يحلمن بالسبي العربي، وإن لم يسبين، فيتخيلن أنفسهن محمولات على الجمال العربية، يقول:

فكلَّمَـــا حَلَمَـــتْ عـــذراءُ عنـــدَهم		فإنَّمـــا حَلَمَـــتْ بالسَّـبيِ والجَمَـلِ[4] (البسيط)

إن المتنبي نظر فرأى دولة ضخمة كالدولة الإسلامية ساهية لاهية، مشغولة بما يفسد حياتها من اللهو والعبث، ومن الخصومة والاضطراب، ورأى فتى عربيا قد ثبت مع من حوله من هؤلاء العرب الذين أقصوا عن ملكهم، وردوا عن سلطانهم لهذه الإمبراطورية الضخمة،

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\103-104.

(2) ربابعة، حسن: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص51.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\229.

(4) المصدر نفسه، 3\83.

فحمى منها الثغور، ودافع عن الإسلام بكل حرارة، فتغنى به بأروع القصائد، واصفاً جهاده ضد الروم [1].

فها هو يصف لنا بطولات سيف الدولة التي خلفت العديد من قتلى الروم قائلاً:

فلمَّــا رأوْهُ وحـــدَهُ قبــلَ جَيْشِـــه	دَرَوْا أنَّ كــلَّ العـــالمينَ فضـــولُ	(الطويل)
وأنَّ رمــاحَ الخَــطِّ عنــه قصــيرةٌ	وأنَّ حديـــدَ الهنـــدِ عنـــهُ كليـــلُ	
فأوردَهُمْ صــدرَ الحصـــانِ وســيفَه	فتـــى بأسُــهُ مثــلُ العطــاءِ جزيــلُ	
فـــودَّعَ قـــتلاهُمْ وشَــيّعَ فَلَّهُــمْ	بضربٍ حُزونُ البَيْضِ فيه ســهولُ [2]	

لعلّ من أهم أدوار الشاعر في حربه النفسية، أن يوظّف نفسه موجهاً معنوياً لجيش سيف الدولة في هزيمته وانتصاراته؛ لرد اعتبار جيشه وقائده في الأولى، وشحذ هممهم لمقارعة الروم المتحشد في الثانية [3].

ولا يشعر العدو إلا وسيف الدولة قد اختصر لمسافات، ليأخذه على حين غرّة بقطع مرصوصة تمطر الحديد والنار، وتسد عليه الطرق والمنافذ، يقول:

فما شَعَرُوا حتـــى رأوْهــا مُغيــرةً	قِباحـــاً وأمَّـــا خلقُهَـــا فَجَميـــلُ	(الطويل)
ســحائبَ يمطــرنَ الحديــدَ علــيهِمُ	فكُــلُّ مكـــانٍ بالسُّـــيوفِ غســـيلُ [4]	

وأقسم قائد الروم بمفرق ملكهم أن يسحق سيف الدولة، إلا أنه عجز عن ذلك، يقول:

---

(1) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص176.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\105.

(3) ربابعة، حسن: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص50.

(4) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\101.

آلَ الفَتـــى ابـــن شُمُشْــقِيقٍ فأحْنَثَـــه فتى من الضَّربِ تُنْسَى عنـــدَهُ الكَلِـــمُ (البسيط)

أينَ البطاريقُ والحَلفُ الّذي حلفُـــوا بمفرِقِ المَلْكِ والزَّعمُ الّذي زَعموا [1]

وصغر المتنبي اسم قائد الروم تحقيراً له، واستهانة بأيمانه التي خانها.

ويطارد سيف الدولة جيوش الروم، فيرمون أسلحتهم لإعاقته هو وجيوشه، ومع ذلك يهزمون يقول:

فَرَمَوْا بما يرمـــونَ عنـــه وأدبَـــرُوا يطَـــؤونَ كـــلَّ حَنِيَّـــةٍ مِرنـــانِ (الكامل)

يغشاهُمُ مَطَـــرُ السَّـــحابِ مُفَصَّـــلا بمثقَّـــفٍ ومهنَّـــدٍ وســـنانِ[2]

ويشحذ المتنبي همة سيف الدولة في موقف نفسي حرج؛ لئلا يتراجع عن هدفه السامي في قراع الروم، على كثرة ما يرى من تعاون المسلمين مع المشركين الروم، إما لعجزهم أو لجبنهم. فيوظف "أل" التعريف ليكشف صورة الحشد المتعاون ضده، فيعرف المسلمين الذين يتعاونون مع المشركين ولو نكّر المتنبي المسلمين، وهو قادر على ذلك، والوزن لا يتكسر لما أعطانا دلالة مكثفة على نوع التحدي المشترك الذي يواجهه ممدوحه المتميز على مقارعة الخصوم المسلمين والمشركين معاً، ومع ذلك يقارعهم، وهو في أحلك الشدائد؛ لأنه واثق بنصر الله تعالى، فهو ركيزته الأولى التي يعتمد عليها أمّا غيره من المسلمين، فهم جبناء عاجزون كأنهم دانوا بدين النصرانية [3]، يقول:

أَرَى المســـلمينَ مَـــعَ المشركيـــــ ـــنَ إمَّـــا لعجـــزٍ وإمَّـــا رَهَـــبْ (المتقارب)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 4\15-16.

(2) المصدر نفسه، 4\182 .

(3) ربابعة، حسن: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص50.

وأنـــتَ مـــع اللهِ فـــي جانـــبٍ قليـــلُ الرُّقـــادِ كثيـــرُ التَّعَـــبْ
كأنَّـــــكَ وحـــــدَكَ وَحَّدتَـــــهُ ودانَ البرِيَّـــــةُ بـــــابنٍ وأبْ[1]

ويصف لنا حال ملك الروم عندما علم بميل سيف الدولة للكرم، حيث خضع له خضوع السائل، وترك الرماح له، فهو أجدر بها؛ لأنه أحذق منه في الطعن، يقول:

رأى مَلِكُ الرُّومِ ارتياحَـكَ للنَّـدَى فَقَامَ مَقَـامَ المُجتـدِي المُتملِّـقِ (الطويل)
وخلَّى الرّماحَ السّـمهريَّة صـاَغراً لأدْرَبَ مِنْهُ بالطِّعـانِ وأَحْـذَقِ[2]

ولم يمدح المتنبي سيف الدولة هنا رغبة في إرضائه فقط، إنما كان يصدر مديحه هذا عمّا يثور في نفسه من العواطف، وما كان يدور في رأسه من الخواطر حين كان يشهد الموقعة، ويتبع العدو منتصراً، أو يولي أمامه منهزماً، وكان يصدر عن انفعالات المسلمين، التي كانت تثور حوله أثناء الاستعداد للحرب وبعد الانتصار. ثم كان يصدر عن الانفعال الذي كان يشهده حين كان يثور في نفس العدو منهزماً ومنتصراً؛ فقد كان المتنبي يمدح سيف الدولة من غير شك في شعره، ولم يصور سيف الدولة وحده، وإنما يصور معه نفسه، ويصور جماعة المسلمين المجاهدين، ويصور جماعة الروم أيضاً [3].

فالمتنبي اندفع لتمثل الذات العربية في كل أشعاره في مدحه، وفي غزله، وفي وصفه للمعارك. ففي مدحه كان حريصاً على أن يتوجه أكثر إلى من يلتمس فيه تمثل الذات العربية المفتقدة، وهذا واضح في مدحه لسيف الدولة [4].

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\104.
(2) المصدر نفسه، 2\311.
(3) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص174.
(4) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص73.

يخاطب المتنبي سيف الدولة طالباً منه أن يرتاح هو، وجيشه الذي لم يتوقف عن غزو جيش الروم، يقول:

أنتَ طـولَ الحيـاةِ للـرُّومِ غـازٍ   فَمتَـى الوعـدُ أن يكـونَ القفـولُ   (الخفيف)

وسِوَى الرُّومِ خلـفَ ظَهـرِكَ رومٌ   فَعَلَـى أيِّ جانِبَيْـكَ تميـلُ(1)

وملوك الروم بتيجانها تخضع وتذل لسيف الدولة، وتقبل بساطه ساجدة له، فهو أكبر من أن تقبّل يداه وأكمامه، يقول:

وفي صورةِ الروميّ ذي التاجِ ذِلّـةٌ   لأبلَـجَ لا تيجـانَ إلا عَمائمُـهْ   (الطويل)

يقبِّـلُ أفـواهُ الملـوكِ بِسـاطَهُ   ويَكبُـرُ عنهـا كُمُّـهُ وبراجِمُـهْ(2)

ويصف غارة سيف الدولة حين انقض على الروم كالصاعقة، إذ أهلك الكثير من الأنفس، ثم نزل في وسط بلاد الروم، مما دفعهم إلى هجران كنائسهم خوفاً منه، يقول:

قادَ المناقبَ أقصَـى شُـرْبِها نَهَـلٌ   على الشَّكيمِ وأدنـى سـيرِها سِـرَعُ   (البسيط)

لا يعتقِي بَلَـدٌ مسـراهُ عـن بلـدٍ   كـالموتِ لـيسَ لَـهُ رِيٌّ ولا شِـبَعُ

حتى أَقام علـى أربـاضِ خَرشـنةٍ   تَشقى بها الرّومُ والصُّلبانُ والبِيَـعُ(3)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\157.

(2) المصدر نفسه، 3\335-336.

(3) المصدر نفسه، 2\224. الشكيم: جمع شكيمة وهي الحديدة التي تعرض في اللجام. وخرشنة: بلد من بلاد الروم.

والمتنبي لاءم بين الواصف والموصوف، فوصل إلى خرشنة كما وصل إليها الأمير في غير مهل ولا أناة، ثم أقام عليها بعد ذلك كما أقام الأمير عزيزاً منتصراً متباهياً بالعزة والانتصار [1].

ويصف لنا بكل براعة حال جيش الروم، وقد حلّ بهم الرعب، ففر منهم من فر، وقتل من قتل بمجيء سيف الدولة وجيوشه، يقول:

فيوماً بخيلٍ تطـرُدُ الـرّومَ عـنهُمُ   ويوماً بجودٍ يطـرُدُ الفَقـرَ والجَـدْبا (الطويل)

سراياكَ تَترى والدَّمسـتقُ هـاربٌ   وأصـحابُهُ قَتلَـى وأموالُـهُ نُهبَـى

كذا يتركُ الأعداءَ مَنْ يَكـرهُ القَنـا   ويَقْفِلُ من كانـتْ غنيمتُـهُ رُعبـا[2]

ولعل اشتراك المتنبي في المعارك غير مرّة مع سيف الدولة، جعل لشعره فضلاً على مؤرخي الروم ممّن عاصروا حرب سيف الدولة، ومنهم "نيسفور فوكاس" الذي أشار إلى خطة الروم في الانسحاب قائلاً: "والروم كانوا يحاربون وهم في مرحلة الهزيمة" [3].

ثم وصف لنا حال ملك الروم، وهو يجمع مع جيشه طوائف شتى من الأعاجم لمساندته، وقد تحصنوا بمختلف الأسلحة التي لم ترد عنهم آجالهم، حيث انهزموا أشد انهزام على يد سيف الدولة، يقول:

يجمعُ الـرومَ والصَّـقالبَ والبلـ   ـغَرَ وتجمـعُ الآجَـالا (الخفيف)

واستجرّوا مكايـدَ الحـربِ حَتـى   تركُوهـا لَهَـا علـيهِمْ وَبَـالا

---

(1) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص233.

(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\63.

(3) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة الحمداني**، ص267.

وهُـــمُ البحـــرُ ذو الغـــوارِبِ إلا   أنَّـــه ثـــارَ عنـــدَ بحـــرِكَ آلا[1]

وشاع الخوف بين جيوش الروم، فكأنه بسط يمينه في ميامن عساكرهم، وشماله في مياسرهم حتى انهزموا، يقول:

بَسط الرّعــبُ فــي اليمــينِ يمينــا   فتولّـــوْا وفـــي الشِّـــمالِ شِـــمالا   (الخفيف)

ينفُض الرَّوعُ أيــديا لــيسَ تَــدري   أَسُـــــيُوفاً حَمَلْـــــنَ أَمْ أغــــــلالا

ووجوهــــا أخافهــــا منـــكَ وَجْـــهٌ   تَركَـــتْ حُسْـــنَهَا لَـــهُ والجَمـــالا[2]

ثم يصف الجثث بقوله :

فقد بَردتْ فــوقَ اللّقــانِ دمــاؤُهمْ   ونحنُ أناسٌ نتبعُ البــاردَ السّــخْنا[3]   (الطويل)

يتضح لنا من البيت السابق، أن المتنبي استطاع أن ينقلنا إلى مشهد حربي كان من سجلهم الحربي السابق مع الروم، إذ أحرزوا نصراً وأراقوا دم الروم، وفي صورة لونية ممزوجة بحماسة، وتصميم على متابعة القتال، موظفاً التضاد الذي يجمع بين شيئين متطابقين[4].

ويبرز لنا المتنبي الصورة اللونية لدروع الروم، وهي مصطبغة بدمائهم المعصفرة؛ وقد جفت عليهم، كألبسة النسوة من تضراب السيف العربي، يقول:

خَنثَى الفُحولِ مِن الكمــاةِ بِصَــبْغهِ   ما يلبسُونَ مِنَ الحديــدِ مُعَصْــفَرَا[1]   (الكامل)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\137-139.

(2) المصدر نفسه، 3\142.

(3) المصدر نفسه، 4\168.

(4) ربابعة، حسن: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص53.

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\165.

والمتنبي لا يلوم ملك الروم على تمنيه خراب قلعة سيف الدولة لما فيها من إتقان وعلو، فهو يقلقه علوها حتى باتت كأنها فوق رأسه وجبينه، يقول:

لا ألـــومُ ابـــنَ لاونٍ مَلِـــكَ الـــرّو	مِ وإنْ كـــانَ مـــا تمنّـــى مُحـــالا	(الخفيف)
أَقلقَتْـــهُ بنيَّـــةٌ بـــينَ أُذْنيـــــ	ـــــهِ وبـــانٍ بَغَـــي السَّـــماءَ فَنـــالا	
كلَّمـــا رامَ حَطَّهـــا اتَّسَـــعَ الْبَنْـــ	ـــــيُ فَغطَّـــى جبينـــهُ والقَـــذَالا[1]	

وليس كل الناس شاعراً كالمتنبي، وليس كل الناس يحس ما يحسه الشعراء من الحزن، ويحبه ما يحبه الشعراء من الغناء، والمتنبي لو كان حراً يستطيع إرسال نفسه على سجيتها، لأطال غناءه الجميل هذا، ولاستخرج من اختلاف اليأس، والأمل على قلوب الناس نفحات حلوة، وألحاناً شجية، ولكنه شاعر الأمير، وترجمان هؤلاء الجند، والأمير مترقب للمدح، والجند مترقبون للفخر والحماسة؛ فليقطع الشاعر على قلبه الحزين غناءه، وليرض الأمير والجيش كما أرضى نفسه [2].

فها هو يصور سيف الدولة، وقد رمى دروب الروم بخيله وجيشه، فصارت كالسهام مسرعة، ولم تعلم الروم بوجود خيل في سرعة السهام، تلك الخيل التي رفعت أذنابها كالعقارب أثناء الحرب، يقول:

رَمى الدَّربَ بالجُرْدِ الجيادِ إلى العِدا	ومـــا علِمُـــوا أَنَّ الســـهامَ خيـــولُ	(الطويل)
شَـــوائلَ تَشْـــوالَ العقـــاربِ بالقَنـــا	لها مَرَحٌ مِـــنْ تَحتِـــهِ وصَـــهيلُ[1]	

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\137.

(2) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص242.

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\99.

والمتنبي يقدّس معنى البطولة والفروسية، وربما ينتصر للرومي الذي مات، وهو يقاتل ويراه أفضل من الجندي العاجز الذي هرب من ساحة القتال [1].

فمن صفات القائد شجاعته في الحرب، كمساور الرومي الذي عرض صورته المعنوية، مبرزاً شجاعته وإقدامه، يقول:

أَمُســـاورٌ أم قـــرْنُ شـــمسٍ هَـــذا   أمْ ليـــثُ غـــابٍ يَقـــدُمُ الأُسْـــتاذا[2]   (الكامل)

وسيف الدولة نثر جثث الروم على جبل الأحيدب بالبشاشة التي تنثر بها الدراهم على العروس. وإذا تفرقوا راح يلاحقهم، فيدوس وكور العقبان على الذرى، ويبذر الأشلاء مطاعم حول هذه الوكور، يقول:

نَثَـــرْتُهُم فَـــوقَ الأحيـــدبِ نثـــرةً   كما نثرَتْ فَوق العـــروسِ الـــدَّراهمُ   (الطويل)
تدوسُ بِكَ الخيلُ الوُكُورَ على الـــذُّرَا   وقد كَثُرَتْ حولَ الوُكورِ المطـــاعمُ [3]

ويتوعد جيش الروم الذين علموا بذهاب سيف الدولة، وجيشه عن أرضهم قائلاً:

وقدْ عَلِـــمَ الـــرُّومُ الشّـــقيّونَ أَنَّـــا   إذا ما تَركنـــا أرضَـــهُم خَلَفنـــا عُـــدْنا   (الطويل)
وإِنّا إذا الموتُ صرَّحَ فـــي الـــوَغَى   لَبِسْنا إلى حاجاتِنا الضَّربَ والطَّعنـــا[1]

ولسيف الدولة، و جيوشه عودة إلى بلادهم، وما الوقت دون ذلك بالبعيد، يقول:

---

(1) عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص100.
(2) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\82.
(3) المصدر نفسه، 3\388-389.
(1) المصدر نفسه، 4\166.

الـــدهرُ معتـــذرٌ والسَّـــيفُ منتظـــرٌ   وأرضُهُمْ لكَ مُصـــطافٌ ومُرْتَبَـــعُ[1]   (البسيط)

وعرف سيف الدولة مدى تأثير المتنبي في النفوس، فكان يدعوه في كل مناسبة ليشحذ الهمم ويثير الحماسة، ثم وصف المتنبي سفارات ملك الروم إلى حلب في طلب هدنة أو مفاداة[2].

وملك الروم رفع رأسه بعد أن كان ذليلاً، بسبب عفو سيف الدولة عنه، وكان تجاوب سيف الدولة معه مدعاة لافتخاره على كل الملوك، يقول:

اليوم َيرفـــعُ مَلْـــكُ الـــرّومِ نـــاظرَهُ   لأنَّ عَفْـــوكَ عَنَـــهُ عنـــدَهُ ظَفَـــرُ   (البسيط)

وإنْ أجبـــتَ بشـــيءٍ عَـــنْ رِســـالتِهِ   فما يزالُ علـــى الأمـــلاكِ يفتخـــرُ[3]

ووصف لنا المتنبي حال النساء حين انتهت المعركة، حيث لم ينج منهن سوى الجميلات اللواتي أضحين أسيرات لدى سيف الدولة، يقول:

فلمْ يبقَ إلا مَنْ حَماها مِـــنَ الظُّبـــا   لَمَـــى شَـــفتيْهَا والثّـــدِيُّ النواهِـــدُ [4]

وتنازل قادة جيش الروم عن أسيادهم، حين رأوا هيبة شجاع بن محمد الطائي، وشدة بأسه، يقول:

نَظرَ العلوجُ فلمْ يَرَوْا مَـــنْ حَـــوْلَهُمْ   لمـــا رأوْكَ وقيـــلَ هـــذا السَّـــيِّدُ   (الكامل)

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\233.

(2) الهاشم، جوزف: **أبو الطيب المتنبي (شاعر لطموح والعنفوان)**، ص57.

(3) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\98.

(4) المصدر نفسه، 1\275-276.

بَقِيَــتْ جمـــوعُهُمُ كأنَّـــكَ كُلُّهـــا   وبَقِيـــتَ بيـــنهُمُ كأنَّـــكَ مُفْـــرَدُ[1]

وقبل هجوم البرد تأتي خيل سيف الدولة سريعة، فتنال من جيش الروم، وإذ استغاث العلج بعلج مثله فرقت بينهما الرماح، يقول:

دونَ السِّـــهامِ ودونَ القُـــرِّ طافِحَـــةً   علـــى نفوسِـــهِمِ المُقَـــوَّرَةُ المُـــزُعُ   **(البسيط)**

إذا دَعَا العِلجُ عِلجـــاً حـــالَ بينهُمَـــا   أظمَى تفارقُ منهُ أختَهـــا الضِّـــلَعُ[2]

من هنا نجد في وصف المتنبي لحروب سيف الدولة ضد الروم عند الثغور فتوة عربية اجتماعية، ونرى هذه الفتوة تشيع في وصف المتنبي حيّة شديدة الاضطراب [3].

وقد يقال إن المتنبي أسرف، وأعظم من أمر هذه المواقع أكثر مما ينبغي، وأضاف إليها من الخطر أكثر مما تستحق، وأعرض عن تصوير الهزيمة بدقة، ولم يعن إلا بتصوير الانتصار. وقبل أن نحكم في هذا على المتنبي، يجب أن نتذكر بأن المتنبي بالأصل شاعر، وإن أرّخ لبعض الأحداث [4].

لقد تعود الشعراء منذ العصر الجاهلي على ذكر الهزيمة على خلاف المتنبي الذي يستغني عن وصف الهزيمة، بل يهمل الموضوع إهمالاً، ويكتفي بالاعتراف بها في شيء من الغموض، ثم يتحول إلى المنتصرين من جيش الروم، فينذرهم ويوعدهم، ويذكرهم بما أصابهم من الهزائم، ويتنبأ لهم بما سيصيبهم منها، وهو لا يرى الهزيمة، إلا امتحاناً للمسلمين، وتمحيصاً لهم، وتنقية لجيشهم من الضعفاء [1].

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 1\235-236.
(2) المصدر نفسه، 2\227-228.
(3) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص174.
(4) المصدر نفسه، ص175.
(1) المصدر نفسه، ص231.

وها هو يصف لنا حال الفرس والروم، إذا نزل بينهم أبو شجاع فاتك حيث يعظمونه ويخضعون له، وكأنه كسرى الملك المبجل عند الفرس، وقيصر عند الروم، يقول:

إِنْ حلَّ فـــي فـــرسٍ ففيهـــا ربُّهـــا   كِسْرى تَذِلّ لَهُ الرّقـــابُ وتخضـــعُ   (الكامل)

أوْ حـــلَّ فـــي رومٍ فَفيهـــا قَيصـــرٌ   أَوْ حلَّ فِي عُـــرْبٍ فَفيهـــا تُبَّـــعُ[1]

ثم يصف لنا حال الروم الذين يرتعبون خوفاً من عبد الله بن سيف الدولة، يقول:

فنحنُ في جذلٍ والرومُ فـــي وَجَـــلٍ   والبرُّ في شُغُلٍ والبحرُ في خجلِ [2]   (البسيط)

ثم يصف لنا حال أحد بطارقة الروم ابن شمشقيق، وقد تخلى عن يمينه التي أقسم بها على أن لا يفر ثم تخاذل وهرب، يقول:

وَأســـلَمَ ابـــنُ شمشـــقيقٍ أَلِيَّتَـــه   إلا انْثَنَى فهوَ ينـــأى وهـــيَ تبتســـمُ   (البسيط)

لا يأمُلُ الـــنّفسَ الأقصَـــى لِمهجتـــهِ   فيسرقُ الـــنّفسَ الأدنـــى ويغتـــنمُ[3]

ثم يمضي في وصف ما كان للمسلمين من قوة وبأس، وما كان يملأ قلوب الروم من فزع وجزع، وما أحدث المسلمون من قتل، وما تركوا في نفوسهم من حزن، يصف هذا كله مصطنعاً فيه الإطالة، يقول:

ألقتْ إليكَ دمـــاءُ الـــرومِ طاعَتها   فلوْ دَعَوْتَ بلا ضـــرْبٍ أجـــابَ دَمُ   (البسيط)

يُسابقُ القتـــلُ فـــيهم كـــلَّ حادثـــةٍ   فما يصـــيبهُمُ مَـــوْتٌ ولا هَـــرَمُ[1]

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 2\277.

(2) المصدر نفسه، 3\80.

(3) المصدر نفسه، 4\24.

(1) المصدر نفسه، 4\26.

والروم أقبلت تمشي إلى سيف الدولة بين الأسد المقتولة، وهم إن رأوا الأسود بين يديه مقتولة أين سيفرون بأطفالهم؟ يقول:

وأَقبَلَـــتِ الـــرّومُ تمشِـــي إِليـــــــكَ بَـــينَ اللُّيُـــوثِ وأشـــبالِهَا (المتقارب)
إذا رأَتِ الأُسْـــــــدَ مَسْـــــــبِيَّةً فَـــــأينَ تَفِـــــرُّ بأطفالِهَـــــا[1]

نستطيع من خلال قراءة النماذج السابقة معرفة صورة الأعجمي غير المسلم، وهي صورة قاتمة سوداء تظهر في التغني بالحروب، ووصف جهاد المسلمين ضد الروم.

والمتنبي لم ينشئ بشعره في وصف الجهاد بين المسلمين والروم فناً جديداً، وإنما ارتقى بهذا الفن حتى انتهى به إلى أقصى ما كان قد قدر له من كمال. تشعر بهذا شعوراً قوياً واضحاً حين تقرأ شعر المتنبي، وشعر أبي فراس في وصف الجهاد. فكلا الشاعرين شهد المواقع، واشترك فيها، وذاق مرارتها ولذّتها. ثم وصف ما تركت نفسه في نفس غيره من الأثر، ولكنك واجد في وصف المتنبي قوة وفتوة ونشاطاً وعنفاً، لا تجدها في شعر أبي فراس، وغيره من الشعراء [2].

---

(1) المتنبي، أبو الطيب: **الديوان**، 3\93.

(2) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص176.

الخاتمة

الخاتمة

شكلت صورة الآخر في شعر المتنبي محور هذا البحث، فقد استعرضت هذه الصورة، وحاولت الوقوف على أسباب ظهورها بهذا الشكل أو ذاك، فخرجت من هذا كله بجملة من النتائج، وهي:

- بروز الأنا المتضخمة لدى المتنبي بشكل كبير، والتي لم نلحظها عندأي شاعر عربي على هذا النحو المبالغ فيه.
- حضور الأنا المتعالية في جميع القصائد كالرثاء، والهجاء، والمديح.
- تميّز المتنبي في الساحة الشعرية مما ساهم في ظهور الأنا المتعالية لديه.
- إن الآخر الشاعر كان من ألد خصوم المتنبي، حيث كانت صورته سلبية على الأغلب.
- إن صورة العربي قبل شهرة المتنبي كانت تقليدية، فقد نهج فيها المتنبي نهج أبي تمام والبحتري.
- إن الشخصية الأبرز، والأهم في ديوان المتنبي هي شخصية سيف الدولة الحمداني، حيث قال فيه ما يقارب ثلث الديوان، وكانت علاقته به علاقة إعجاب وتوحد.
- تطور شعر المتنبي بعد اتصاله بسيف الدولة الحمداني.
- إن المتنبي عربي النسب، والنشأة. ولم يمدح الأعاجم إلا لغاية، ألا وهي التكسب.

- حضور الروم في حياة العرب، وفي ديوان المتنبي، حيث كانت صورتهم سلبية قاتمة ظهرت من خلال تغنيه بالحروب التي دارت بين العرب وبينهم.

- إن فن المديح، والفخر من أبرز الفنون التي اشتهر بها المتنبي.

- تميز المتنبي في استعمال الايقاع، فقد كان يكرر بعض الأصوات، والتكرار عنده يدل على اصراره على الشيء، وترديد الأصوات، أو ألألفاظ ليس مجرد لعب لفظي، وإنما هو مظهر من مظاهر تنظيم المعنى، وإخراجه في النص.

- أكثر المتنبي من استخدام حروف القاف، والراء، والعين، وهي أصوات جهورية، وبخاصة في تصويره لمعارك سيف الدولة.

- أكثر المتنبي من استخدام الموازنة التركيبية بين صدر وعجز معظم الأبيات، والموازنة التركيبية تقوي الإيقاع، وتساهم في خلق النَفَس الحماسي في النص، وهذا يبدو بوضوح في وصفه لحروب سيف الدولة الحمداني.

- كانت الاستعارة عند المتنبي وسيلة لتشكيل العالم، وكأن المتنبي وقد عجز عن تغيير العالم في الواقع قد استغل الشعر؛ لخلق عالمه الخاص الذي أعاد فيه للغة بكارتها الأولى.

- كان المتنبي يناسب بين الألفاظ والتفعيلات ويكثر من الجناس، والمقابلة، والترصيع وهذا يبدو واضحاً في قوله:

ونحن في جدلٍ والروم في وجلٍ   والبرُّ في شُغلٍ والبحر في خجلٍ

وفي نهاية بحثي أقول: إن ديوان المتنبي يجب أن لا يغلق أبدا؛ لأنه مصدر ثري ينهل منه جميع الناس على مدى الزمن، وما توصلت إليه من نتائج غير كاف لكي نغلق باب البحث في هذا الموضوع.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- إبراهيم، نوال: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ط1، عمان: دار جرير للنشر، 2008.
- أدونيس، أحمد سعيد: **مقدمة للشعر العربي**، ط3، بيروت: دار العودة، 1979.
- الإسكندري، أحمد. وآخرون: **المفصل في تاريخ الأدب العربي في العصور القديمة والوسيطة والحديثة**، ط1، بيروت: دارإحياء العلوم، 1994.
- إسماعيل، عز الدين: **نوابغ العرب أبو الطيب المتنبي**، ط1، بيروت: دار العودة، 1974.
- الأيوبي، ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ط1، بيروت: المكتبة العصرية، 2002.
- البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، تحقيق: مصطفى السقا ومحمد شتا، (د، ط)، مصر: دار المعارف، 1963.
- برديائيف: **العزلة والمجتمع**، (د، ط)، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986.
- التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، (د، ط)، القاهرة: مكتبة غريب. (د، ت).
- التونخي، محمد: **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس**، ط1، 1975.
- الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد المجيد، ط2، القاهرة: مطبعة السعادة، 1956.
- الجرجاني، علي: **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل، وعلي محمد البجاوي، ط3، دار إحياء الكتب العربية، (د، ت).
- الجندي، أنور: **خصائص الأدب العربي**، (د، ط)، بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د، ت).

- الحديدي، سيد: **المتنبي العبقري الطريد**، ط1، سورية: دار شعاع للنشر والعلوم، 2006.
- الحديدي، محمد عبد اللطيف: **بين الأنا والآخر في مدحيات المتنبي**، ط1، القاهرة، 1998.
- حرب، سعاد: **الأنا والآخر والجماعة (دراسة في فلسفة سارتر ومسرحه)**، ط1، بيروت: دار المنتخب العربي، 1994.
- الحسن، عارف الشيخ: **من حكم وأمثال المتنبي**، ط1، دبي: دار القلم للنشر والتوزيع، 1996.
- حسين، طه: **مع المتنبي**، (د، ط)، مصر: دار المعارف، 1962.
- حطيط، كاظم: **أعلام ورواد في الأدب العربي**، ط1، لبنان: الشركة العالمية للكتاب، 1987.
- حطيط، كاظم: **دراسات في الأدب العربي**، ط1، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1977.
- خفاجي، محمد: **الحياة الأدبية في العصر العباسي**، ط1، الإسكندرية: دار الوفاء،2004.
- خفاجي، هادي: **سنوات ضائعة من حياة المتنبي**، ط1، بيروت: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، 1995.
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق:إحسان عباس، (د، ط)، بيروت، دار الثقافة، (د، ت).
- خليف، مي: **ميمية المتنبي (مجالات الإبداع وطبيعة المعالجة)**، (د، ط)، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، (د، ت).
- الديك، إحسان: **الآخر وأثره في شعر الأعشى الكبير**، عدد(3)، 2003، ص9.

- ربابعة، حسن: **أدب الحرب عند المتنبي،** ط1، الأردن: مؤسسة رام للنشر والتوزيع، 2004.
- ابن رشيق: أبو علي: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،** ط3، بيروت: دار الجيل، 1981.
- الرفاعي، نعيم: **الصحة النفسية (دراسة في سيكولوجية التكيف)،** ط1، 1987.
- الرومي، عبد الرحمن: **رسالة في قلب كافوريات المتنبي من المديح إلى الهجاء،** تحقيق: محمد نجم، ط2، بيروت: دار صادر، (د، ت).
- زيدان، جورجي: **تاريخ آداب اللغة العربية،** (د، ط)، دار الهلال، 1961.
- سالم، وجيه: **في رحاب أبي الطيب،** (د، ط)، مركز يافا للنشر والتوزيع، 2006.
- السامرائي، إبراهيم: **في مجلس أبي الطيب،** ط1، بيروت: دار الجيل، 1993.
- سلطان، منير: **الصورة الفنية في شعر المتنبي (التشبيه)،** (د، ط)، الإسكندرية: منشأة المعارف،2007.
- شتا، علي: **نظرية الاغتراب،** ط1، الرياض: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، 1984.
- شرارة، عبد اللطيف: **أبو الطيب المتنبي (دراسة ومختارات)،** ط1، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 1988.
- الشكعة، مصطفى: **سيف الدولة الحمداني أو مملكة السيف ودولة الأقلام،** (د، ط)، بيروت: عالم الكتب، (د، ت).
- شلبي، سعد: **الشعر العباسي التيار الشعبي،** (د، ط)، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، (د، ت).

- شلبي، سعد: **مقدمة القصيدة عند أبي تمام والمتنبي،** (د، ط)، القاهرة: دار غريب للطباعة، (د، ت).
- الشيراوي، أحمد: **أطلس المتنبي أسفاره من شعره وحياته،** ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004.
- الطبال، أحمد: **المتنبي (دراسة نصوص من شعره)**، ط1، طرابلس: منشورات المكتبة الحديثة، 1985.
- عارف الحسن، نهى. وشيخ بكري، أمين: **المتنبي دراسة نفسية وأسلوبية،** ط2، بيروت: دار العلم للملايين، 2003.
- عباس، فيصل: **التحليل النفسي للشخصية،** ط1، بيروت: دار الفكر اللبناني،1994.
- عبد الجابر، سعود: **الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني،** (د، ط)، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981.
- عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي،** ط1، الإسكندرية: دار المعارف، 1983.
- العريض، إبراهيم: **فن المتنبي بعد ألف عام،** ط2، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1973.
- عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام،** (د، ط)، القاهرة: دار المعارف، 1936.
- عشماوي، أيمن: **قصيدة المديح وتطورها الفني،** دار المعرفة الجامعية، 1999.
- العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة،** ط3، بيروت: دار الكتاب العربي، 1966.

- عليان، محمد: **المديح في بلاط سيف الدولة الحمداني**، (د، ط)، الإسكندرية: دار المعرفة، 1990.
- العميدي، أبو سعد: **الإبانة عن سرقات المتنبي**، (د، ط)، مصر: دار المعارف، 1961.
- فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ط12، بيروت: المطبعة البوليسية، (د، ت).
- فاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ط5، بيروت: المطبعة البوليسية، (د، ت).
- القعود، عبد الرحمن: **في الإبداع والتلقي**، (د، ط)، عالم الفكر، 1997.
- الكيالي، سامي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، (د، ط)، مصر: دار المعارف، 1959.
- لاشين، كمال: **المتنبي في مصر**، ط1، القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، 1993.
- المازني، إبراهيم: **حصاد الهشيم**، (د، ط)، القاهرة: دار المعارف، 1924.
- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي: **الديوان بشرح أبي البقاء العكبري**، (د، ط)، دار الفكر، (د، ت).
- المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة الحمداني**، ط2، القاهرة: دار المعارف، (د، ت).
- المحاسني، زكي: **نوابغ الفكر العربي**، ط5، بيروت: المطبعة البوليسية، (د، ت).
- المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ط10، بيروت: دار العلم للملايين، 1975.
- المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ط11، بيروت: دار العلم للملايين، 1977.
- النابلسي، محمد: **الصدمة النفسية**، ط1، بيروت: دار النهضة العربية، 1991.

- الهاشم، جوزف: **أبو الطيب (شاعر الطموح والعنفوان)**، (د، ط)، دار المفيد. (د، ت).
- الواد، حسين: **المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب**، ط1، الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1991.

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

The Other in Al-Mutanabi's Poetry

By
Rola Khaled Mohammad Ganem

Supervised by
Dr. Abd El-Khaleq A'esa

Submitted in Partial fulfillment of the requirements for the degree of master of Arts in Arabic, Faculty of Graduate studies, at An-Najah National University, Nablus, Palestine.
2010

"The other" in Al Mutanabi's Poetry
By
Rola Khaled Mohammad Ganem
Supervised by
Dr. Abd ElKhaliq Issa

Abstract

This study is important because it discusses an important poet. Although he has always been in the light spots and his works were the subject for many researches till the moment, no one paid the right attention to "the other" in his works. So this study is new and has a new subject despite the huge amount of researches conducted about his work.

The research is concerned about" the other's" image in Al Mutanabi's works, and the most important one is" the other I". that's because the "supreme I" is an important feature in Al Mutanabi's works. The research discusses the image of the poets, the Arab's image before Al Mutanabi became famous, and after he became famous and the image of the other foreigner Muslim" Ajami" and non-Muslim.

Investigating "the other's " image in Al Mutanabi's poetry, formed a very clear point of view about the image of" the other I"."The distant I", which was strong in Al Mutanabi's works. No land or sky can limit it, it has no boundaries. " The other poet "that Al Mutanabi considered as an enemy who competed him on his living.

It , also, formed a point of view about " the praised Arabic other" before Al Mutanabi's fame, he had a traditional image: brave and generous. " the praised Arabic other" after Al Mutanabi's fame, and Saif Al Dawlah

Al Hamadani was the perfect example for this "praised Arabic other" after he became famous, so that Al Mutanabi wrote about one third of his collection of poems "Diwan" about him. Al Hamadani had a very bright image because Al Mutanabi's identity unified with Saif Al Dawlah, who was the leading character in his life and works.

The non-Muslims foreigner" Ajami" image was also very clear at" the Diwan", the most famous non-Muslim foreigner that Al Mutanabi praised and satirized at the same time was Kafour Al Ikhshidi's character. The character had two images, the first was bright and Al Mutanabi praised him for a purpose, which was to earn and acquire authority and leadership, the second character was gloomy and it was shown up in the satirize poem. He over satirized him when Al Ikhshidi didn't do what Al Mutanabi was looking for.

For" the non-Muslim other", Al Mutanabi used "Al Room" , who had existed in the Arab life through the wars between them.